ثقافات الشعوب

@ketab_n
28.10.2014

@ketab_n

الرِّجل المكسورة

حكايات شعبية من فرنسا

تأليف: جان نيكولا بُوئِي
ترجمة: محمد عبود السعدي

الرِّجل المكسورة

حكايات شعبية من فرنسا

@ketab_n

تأليف وجمع:
جان نيكولا بُوييِّ

ترجمة:
محمد عبود السعدي

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

Twitter: @ketab_n

الرِّجل المكسورة

حكايات شعبية من فرنسا

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

الرِّجل المكسورة: حكايات شعبية من فرنسا

© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

PQ2198.B65.C712 2009
Bouilly, Jean - Nicolas.
[Contes Populaires]

الرِّجل المكسورة: حكايات شعبية من فرنسا/ تأليف وجمع جان نيكولا بويي؛
ترجمة محمد عبود السعدي. - ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
220ص؛ 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 978-9948-01-520-8
ترجمة كتاب: Contes Populaires
1 - القصص الشعبية الفرنسية. 2 - الحكايات الفرنسية. أ- السعدي، محمد عبود.
ب- العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبوهواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التنان

info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+

www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ،
فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
التقديم	9
سيدات السوق الشعبية	15
الإطفائي جوزيف	29
الحساء الاقتصادي	45
مركب عاملات الغسيل	65
الأرقام الثلاثة	84
العرّافة	108
الرِّجل المكسورة	123
صندوق التوفير	143
حمال سوق الجملة	165
جورج وتيودور	185

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها – مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة – تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في أقاصي الغرب، أو

Twitter: @ketab_n

شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما ألوانها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه – وإن بلغة أخرى – جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

Twitter: @ketab_n

تقديم

تعود الحكايات العشر الواردة في هذا الكتاب إلى فترة تمتد بين بدايات القرن التاسع عشر والأربعينيات منه. وهنا تكمن متعة قراءتها، للأسباب المعروضة لاحقاً.

فالكاتب، جان نيكولا بُويِّي Jean-Nicolas Bouilly، ولد قبل الثورة الفرنسية، تحديداً في 1763 (في مدينة «تور»، في وسط فرنسا)، وأمضى معظم حياته في باريس، حيث مات، عن 79 عاماً، في 1842، تاريخ آخر مؤلفاته، التي أهدى معظمها إلى ابنته الوحيدة، فلاڤي، حتى بعدما بلغت وتزوجت، وأصبحت «مدام روشيل».

في الأصل، لم تنشر هذه الحكايات العشر هكذا، دفعة واحدة وفي كتاب واحد، إنما تباعاً، على سنوات طويلة، إلى أن جمعتها، في نهاية القرن التاسع عشر، دار «أوجين آردان»، وطبعتها في مدينة «ليموج» (وسط فرنسا)، ضمن كتاب ضمَّ النخبة الواردة هنا، وبالتسلسل نفسه، الذي لا يطابق بالضرورة

Twitter: @ketab_n

التسلسل الزمني الأصلي لتأليف الحكايات.

ولا يخفى أن الفرنسية، كأي لغة، تطورت كثيراً خلال قرنين. ولغة بُويِّي ليست كلغة أي من مواطنيه المؤلفين المعاصرين. لذا، تطلبت الترجمة التي بين أيديكم بحثاً إضافياً، لا في باب اللغة البحت وحسب، إنما أيضاً في مجالات تاريخية واجتماعية مختلفة. فمثلاً، حتى فرنسيو اليوم يجهلون، في غالبيتهم الساحقة، معنى «التعليم المتبادل»، بما أن هذه الوسيلة التربوية، ببساطة، لم يعد لها وجود. مثال آخر: كانت لعبة اليانصيب، الوارد ذكرها في حكاية «الأرقام الثلاثة»، تستخدم وقتها مصطلحات خاصة، لم تعد موجودة، وإن وجدت، فهي متداولة لغايات أخرى، مختلفة تماماً. تطلب الأمر، طبعاً، فهم آلية لعبة الميسر تلك، مثلما كانت تجرى آنذاك، والاطلاع على تسميات «الجوائز»، من أجل ترجمة أمينة. هذان مجرد مثالين، من بين عشرات. هكذا، عند الضرورة ولمزيد من الإيضاح، أدرجنا بعض التفسيرات ضمن هوامش. لكن، تفادياً لإثقال النص بهوامش كثيرة، عمدنا في معظم الحالات إلى تضمين الشرح داخل النص.

فما هي هذه الحكايات؟ وما الفائدة من الاطلاع عليها؟

Twitter: @ketab_n

لنقل حالاً إن حكايات بُوِيّي «شعبية» بحق، بمعنى أنها تخص وقائع يومية ملموسة، عاشها شعب باريس في فترة كتابتها. وهي، من هذا المنطلق، بعيدة كل البعد عن حكايات الجن والساحرات الطيبات وفرسان الأحلام، قاهري التنين، والحسناوات اللائي تعمد ساحرات شريرات إلى مسخهن ضفادع... وما إلى ذلك من «فنطازيات» مألوفة في حكايات أخرى، بما فيها من فرنسا. إذ سبق أن اغتنت المكتبة العربية بتراجم كثيرة لمثل تلك الحكايات الخرافية لكتاب فرنسيين أذيع صيتاً من صاحبنا، جان نيكولا بُوِيّي. فمن منا لم يسمع بحكايات شارل پيرو (مثل «عقلة الإصبع»، «اللحية الزرقاء»، «ليلى والذئب»، «سندريلا والحذاء الزجاجي»، إلخ)؟ ومن لم يطّلع على قصة «الجميلة والوحش»، على الرغم من أن مؤلفتها، جان ماري لوپرانس دو بومون، أقل شهرة بكثير من حكايتها؟

حكايات بُوِيّي – التي شكلت باريس تلك الحقبة مسرحاً لأحداثها كلها – تتسم، على العكس، بالواقعية، بل الواقعية المفرطة. إنها أشبه بما يُسمى اليوم «أحداث متفرقة»، صاغها الكاتب على شكل حكايات لكي يربط كلاً منها برسالة أخلاقية، ومغزى معين. وإذا كانت الحيوانات «أبطال» حكايات

Twitter: @ketab_n

«كليلة ودمنة»، التي ألهمت مواطنه الأقدم جان دو لافونتين، فشخصيات بُوبِّي بشر حقيقيون، من أبناء الشعب البسيط. هو نفسه، يعترف في بعض الحكايات (أو ربما «يدعي»؟) بأنها قصص حقيقية، معرباً عن سروره بتخليدها على سطور. المشهد الوحيد الذي يروي «بطولة» خارقة، غير معقولة، ورد في حكاية «الإطفائي جوزيف». ولن يجد القارئ صعوبة في معرفة أي مشهد نعني. فمهما كانت شجاعة جوزيف هذا وشهامته، فإنهما لا تكفيان لتحدى قوانين الفيزياء، وتمكينه من الغطس أربع مرات في مياه مغطاة بالجليد من دون أن يتجمد هو الآخر. على أي حال، أقله في هذه الحكايات العشر (من بين العشرات التي ألفها بُوبِّي)، تشكل تلك الحلقة «الاستثناء الذي يثبت القاعدة». فعدا عنها، كل ما جاء في الحكايات يدخل في نطاق الممكن والمحتمل والمعقول.

إلا أن الأهم من مدى واقعية الحكايات العشر، ونسبة الخيال فيها، هو مغزى كل منها. فهي تمنح فرصة لمقارنة قيِّمة وطريفة، بين عقلية الفرنسيين في تلك الفترة، وعقلية أحفادهم اليوم، وسلوكهم. فالكاتب يمجد قيماً معينة بأسلوب واضح ومباشر، قد يبدو «ساذجاً» بالنسبة إلى المؤلفين الفرنسيين المعاصرين. بل،

Twitter: @ketab_n

قد يجد فرنسيو أيامنا هذه تلك القيم نفسها «ساذجة»، على الرغم من أزليتها وعمقها. ففي الكثير من الأحكام الأخلاقية، وليس كلها، اختلف نمط تفكيرهم تماماً عما كان عليه في تلك الحقبة. ومَن، مثلي، خالطهم وعاش بين ظهرانيهم 30 عاماً، يعي تماماً مدى اختلافهم عن أجدادهم بحسب وصف مؤلف هذا الكتاب لهم.

جان نيكولا بوبِّي، في حكاياته هذه، يمجد البرّ بالوالدين والإحسان للمسنين، ويمدح صفات التضحية والإيثار، ويحض على المثابرة والعمل، وتعلم القراءة والكتابة، وينبذ القمار والآمال الخادعة، ويدحض دجل العرافات وقراء البخت... وغير ذلك، مثلما سيستشف القارئ بنفسه. في المقابل، يبدو وكأنه يعدُّ شرب الكحول أمراً اعتيادياً، يحاكي أي عادة يومية طبيعية. المرة الوحيدة التي نوَّه فيها إلى مساوئ الخمر جاءت في قصة «حمال سوق الجملة»، الذي يحيله الخمر عدوانياً وعدائياً ومتهوراً.

وفي الحديث عن البر بالوالدين، وهو موضوع يتكرر في حكايات متعددة من هذا الكتاب، من الطريف مقارنة مغزى الحكايات وما آلت إليه سلوكيات الفرنسيين بعد قرنين. فمثلاً،

Twitter: @ketab_n

في تسعينيات القرن الماضي، حصلت حادثة غير نادرة في فرنسا: توفيت سيدة عجوز تعيش وحدها في غرفة في الطابق العلوي من عمارة. ولم يفطن أحد لموتها سوى بعد ثلاثة أسابيع، عندما اضطر رجال الإطفاء إلى كسر باب الغرفة والدخول عنوة، بسبب عطل كهربائي تحتمّ إصلاحه. الأنكى: ابنتها، مع زوجها وأولادها، يسكنون العمارة نفسها، في الطابق الثاني. ولما سُئلت كيف لم تنتبه إلى أمها المتوفاة منذ أكثر من 20 يوماً، ردت ببرود أنها كانت زارتها قبل شهر، فوجدتها في صحة جيدة!

لا محالة من الابتسام عندما نقارن ذلك السلوك بما حلَّ، مثلاً، ببائعة السمك في السوق الشعبية (في الحكاية الأولى)، التي دفعت ثمناً باهظاً لتنصلها من بعض واجباتها تجاه جدتها، على الرغم من أنه أقل وطأة بكثير من إهمال أم وحماة وجدة تسكن بضعة طوابق أعلى من ذريتها.

وسيجد القارئ الكريم الكثير من التأملات المشابهة.

محمد عبود السعدي

Twitter: @ketab_n

سيدات السوق الشعبية

في عاصمة فرنسا، ربما ليس ثمة مهنة يُحمل فيها الشرف الحقيقي على منزلة أرفع من مهنة تلك السيدات اللائي، خلف أسلوب كلامهن العمومي وطباعهن الفظة، يُخفين نبل الروح وعادات متأصلة في التفاني وبذل الذات والكرم. بالنسبة إلى من يراقب أخلاق البشر بنظر فاحص، تشكل سوق الخضار والفواكه والأسماك واللحوم الشعبية لوحة حية تعج بمناظر مبتذلة وفي الوقت ذاته مؤثرة، تُضحك تارة، وتثير الاهتمام أو تبعث على الإعجاب تارة أخرى.

لن أنسى ما حييت المشهد العظيم والمحرك للعواطف، الذي حصل أمام ناظريَّ يومَ تمكنت للمرة الأولى قوى أوروبا، المتحالفة ضد مجد جيوشنا، من إرغام محاربينا على التقهقر، بحكم ضخامة عدد من واجهوهم. امتلأت أرضية «ساحة الأبرياء» الشاسعة بجنود مخضرمين، وشباب جرحى من المكلفين بالخدمة الإلزامية، تم إخلاؤهم على عجالة على عربات إسعاف.

Twitter: @ketab_n

تعبيراتهم الخائرة، ونظراتهم المعبرة عن الغضب إزاء حرمانهم من النصر؛ مصرع هؤلاء وأنين أولئك ألماً؛ الدم الذي كان لا يزال يسيل بغزارة من جراحهم؛ كل ذلك أجج رحمة سيدات سوق الأغذية، وإشفاقهن.

جعلن يحملن على أكتافهن العساكر المصابين، من دون الاكتراث لا برتبهم العسكرية ولا بأعمارهم، فيضعنهم برفق على أسِرَّة هُيئت على جناح السرعة، ثم يهرعن إلى النافورة ينهلن الماء منها بأيديهن لغسل جروح المصابين بعناية حنون. كن يحتضنّ بين أذرعهن أولئك الذين كانت برودة الموت بدأت تجمد أحاسيسهم، وينفثن أنفاسهن عليهم لتدفئتهم. ويتضرعن إلى السماء لكي يبقوا على قيد الحياة، ويُنادين المارة داعيات إياهم إلى مد يد العون. هكذا، إن جاز القول، أحلن مستشفىً عسكرياً تلك السوق الشهيرة، التي تتقاطر نحوها أطيب ثمار حدائق فرنسا.

الإنسانية، لدى تلك النسوة الرائعات، تعدُّ واجباً ومتعة في آن واحد. والإحسان بالوالدين والمسنين طقس حقيقي عندهن، وعقيدة. تلك الخلة الحميدة تنبع من العقبات اللازم عليهن اجتيازها، والتعب الذي يتحملنه لتوفير بحبوحة ما

Twitter: @ketab_n

لأيام الشيخوخة. الطفل الذي يرى أمه تبتعد عن مهده على مضض، منذ الصباح الباكر، لكي تلتحق بدكان تتحمل فيه نـزوات الطقس في كل موسم، ثم يراها تعود لكي تغمره بحنانها الأمومي، وتتناول وجبة بسيطة مستعجلة، قبل أن تسارع إلى العودة إلى بسطة البيع المخصصة لها، التي أولتها في هذه الأثناء مؤقتاً إلى إحدى جاراتها البائعات؛ أقول إن ذلك الطفل يستثيره تفاني أمه، وكدُّها الذي لا ينضب، فيحسب كل ما تضحي به من عمل وجهد من أجل تربية أسرتها. فتتولد عنده مشاعر تعلق بأمه، وتبجيل تدريجي إزاءهـا، تنمِّي في روحه بذرة العرفان بالجميل، والرغبة العادلة في سداد الدَّين، يوماً.

لذلك، نرى بين خَلق الأسواق الشعبية كثيراً من مسنين ومسنات يحيطهم أولادهـم بعطفهم ورعايتهم واحترامهم. هؤلاء العجائز يستعيدون شيئاً مما قدموه إلى ذريتهم في نعومة أظفارها، فيحظون برعايتها وتقديرها حتى مماتهم.

هذا البر بالوالدين، الشرعي جـداً، الـذي تتمسك به بائعات الأسواق الشعبية تمسكاً لا رجعة فيه، كان وراء قصة نموذجية مؤثرة، أعدُّ من واجبي أن أقصها بكل ما تستأهله

Twitter: @ketab_n

من إخلاص للواقع. فليثبت سردي إلى طبقات المجتمع العالية بأن الشعب البسيط، غالباً ما يتكون في قرارة نفسه انضباط أخلاقي ذاتي لا تجرؤ على فرض مثله علية القوم، وبأن محكمة الرأي العام أكثر قسوة وأشد وطأة لدى بسطاء القوم مما هي لدى كبارهم.

كانت لويز آن بائعة سمك تدير أحد أكثر دكاكين السوق رواجاً، بما يعرضه من أسماك مختلفة جيدة. عُرفت بحسن تقاطيع وجهها، وحِدَّة تعبيرها، بقدر ما اشتُهرت بلسان ثرثار سليط وبتلك المشية المتبخترة التي تميز سيدات تلك الصنعة. ابتسامتها الفرحة المحتالة كانت إعلاناً عن إرادة قوية ونزعة استقلالية لا تستجيب، إلا بالكاد، لأبسط مطالب الكياسة وحسن السلوك. لم تكن تأبه بأن يجرؤ بعضهم على النمِّ في شأنها. إذ كانت لها أخلاقها، وكانت شهادة ضميرها تكفيها.

على الرغم من ذلك، من بين شبان عديدين كانوا يتقربون إليها، لاحظت ساعي بريد يدعى بيرتران. كان شاباً طويلاً وقوياً، ذا وجه لطيف ومزاج مَرح، يحظى بتقدير رؤسائه، وموعوداً بتدرج مهني مُجزٍ. ولما أعرب عن نيته الاقتران بها، استضافته في البيت لكي تعرِّفه بأبيها. كان هذا ملاحاً نهرياً متقاعداً، عمل

Twitter: @ketab_n

ماضياً في ميناء «لا راپيه»، على نهر السين. لكنه اعتكف إثر وفاة زوجته، فجاء يسكن عند ابنته، بصحبة أمه العجوز، المريضة المقعدة، التي لم يبخل بعنايته بها، وتقديره وتبجيله لشخصها.

قام السيد موران – هذا هو اسم الأب الطيب – باستقبال طالب يد ابنته برضاء وثقة. وحُدّد حالاً موعد قرانهما. لكن، انتاب الملاح المسن مرضٌ عضال أوصله إلى القبر. في أيامه الأخيرة، لم يهتمَّ سوى بوالدته. وقبل أن يلفظ نفسه الأخير، بارك ابنته، لويز آن، وأوصاها بأن تحل محله في رعاية أمه، وأن تخفف معاناتها بكل ما ملكت من حيلة. فتلك الجدة الوقور كانت مشلولة، تمضي حياتها في كرسي. مع ذلك، كانت تجد الوقت لإنجاز أعمال الإبرة، خياطةً وتطريزاً.

لكن، كل يوم، توجب رفعها من السرير، ثم إعادتها إليه، كطفل في مهده. وكان لزاماً دفع كرسيها إلى مقربة من نافذة غرفتها لتمكينها من استنشاق الهواء والابتهاج بأشعة الشمس. وطبعاً، توجب أيضاً تحضير طعامها، وأحياناً تحمُّل مزاجها ونفاد صبرها، وذلك غير نادر من لدن مَن يعانون. والأهم، استلزم الأمر الاستجابة إلى أي من طلباتها. السيد موران، ابنها، كان عوَّدها على ممارسة ذلك التحكم الذي يحرص المسنون على

Twitter: @ketab_n

الاحتفاظ به. ولم تؤدِّ وفاة ذلك الابن الحنون الصبور سوى إلى مفاقمة الطبيعة النزقة العصبية لأمه المعاقة العجوز.

تحملت لويز آن الأمر ردحاً، من دون تذمر. فوصية أبيها المحتضر لم تفارق ذاكرتها. وكانت طبيعتها الفرحة، وكلامها الحاد، وأحياناً المنكد، تجعل جدتها تبتسم رغماً عنها، بل تخفّف من معاناتها في كثير من الأحيان. لكن، بما أنها كانت مجبرة على الذهاب إلى السوق لكي تشغل مكانها ولا تفقده، والانصراف إلى مشاغلها اليومية، كلّفت، للاعتناء بجدتها، فتاة يتيمة من الجوار، كانت تطعمها من باب البرِّ والإحسان. فلبّت اليتيمة كل ما يتطلب وضع العجوز المعوقة من احتياجات.

مضت شهور عديدة من دون أن تتلكأ الآنسة موران أدنى تلكؤ في رعاية جدتها. إلا أن هذه الأخيرة، بعد حين، بدأت تظن بأن حفيدتها أضحت تميل إلى التخلي عنها، ولم تعد على ذلك القدر من الاهتمام بحالها، ولا تلك المسارعة إلى تحقيق أدنى رغباتها وتخفيف عذابها. فلا شيء يحيل المرء حساساً بقدر إحساسه بأنه عالة على أهله. لا شيء يعكر المزاج بقدر الاضطرار القاسي إلى تلقي عناية متجددة من أشخاص يبدون وكأنهم يلبونها مرغمين ومكرهين. وقد أدت لويز آن، من دون

Twitter: @ketab_n

توجيه أي كلمة جارحة إلى جدتها، واجباتها تجاهها كأنها سخرة مفروضة، وغالباً ما استعجلت إنهاءها بأسرع وقت.

ثم بدأ التشكي يحل محل الصمت. ولم تلبث العجوز موران المسكينة أن أدركت مردَّ الشكوى: تأثير فتور ساعي البريد، منذ بعض الوقت، إزاء خطيبته. قال لها إنه لن يتزوجها قط طالما بقيت مبتلاة بجدتها، التي تتطلب حالتها تضحيات كثيرة، والتي أصبح مزاجها العكر لا يطاق أكثر فأكثر.

بين مطرقة الجدة وسندان الخطيب، صمدت لويز آن فترة. لكن، بات لزاماً عليها أن ترضخ. والجدة موران، نفسها، أعربت عن رغبتها بالتخلص من عذاب الشعور بأنها عالة. فقبلت عرضاً بالإقامة في دار عجزة، حيث وعدت حفيدتها بأن تقدم لها هناك ما استطاعت من خدمات وعناية وتقدير. الوعود، في حالات كتلك، لا تكلف شيئاً، وعادة ما تكون متناسبة طردياً مع شدة الرغبة بالتخلي عما يعدُّه صاحب الوعد عبئاً ثقيلاً.

نقلت العجوز المشلولة، إذن، إلى إحدى دور العجزة في باريس. فابتعدت عن عائلتها وأصدقائها، وباتت تحت رحمة الممرضين ورقباء الردهات، المرغمين على مشاطرة جهودهم ورعايتهم بين عدد كبير من المسنين الزَّمنين، فلا يسعهم رعاية

Twitter: @ketab_n

كل منهم إلا بقدر شحيح من التفاني. يا للعجوز المسكينة! كم أحست، وقتها، بثقل عجزها! كم شعرت بفراغ في روحها! كم عانت من العدم يحيط بها!

على الرغم من ذلك، لم تفوت لويز آن صباحاً إلا وذهبت لكي تعود جدتها في دار العجزة، وتلهمها بما قدرت عليه من سلوان لتهدئة عذاب حالها. كانت تشرف بنفسها على إنهاض جدتها من السرير، ووضعها على كرسيها، مغدقة النصائح والتوصيات للممرضين، بدافع الإحسان التقي بأم أبيها. بل شوهدت مرات تذرف الدموع وهي تبتعد عنها، وتتنهد حسرة وأسفاً، ثم تلقي عليها نظرة أخيرة، ملؤها الحنان، قبل أن تغادر إلى السوق الشعبية لكي تأخذ مكانها. وهناك، بانشغالها بالبيع والهموم اليومية، وبوجود خطيبها ساعي البريد، كانت تنسى أساها على جدتها، والانطباع الحزين الذي تركته زيارتها في الصباح الباكر.

ولم تكد تمضي بضعة أسابيع على ذلك الانفصال، حتى واجهت لويز آن محنة أثبتت لها أن تجاهل شريعة الطبيعة لا يمر أبداً من دون عقاب. كانت بائعات السوق الشعبي جميعهن علمن بأمر ضعفها إزاء طلب خطيبها بإبعاد العجوز عن البيت.

Twitter: @ketab_n

وبين تلك السيدات، ثمة ما يشبه «محكمة عائلية»، تشكل بحق مؤسسة تشريعية أخلاقية، تصدر أحكامها وفقاً لأصول الشرف وقواعد المهنة؛ وهي أحكام تنفذ من دون أن تكون للمحكوم عليه أي إمكانية بالتهرب منها. في صباح أحد الأيام، كانت بائعة السمك تنشر على بسطة العرض أجمل عينات أسماك البحر الطازجة، التي كانت وصلت في تلك الليلة، وتصف جودتها للمارين العديدين الذين يتوقفون، مأخوذين بكلامها الحلو المَرِح. في تلك الأثناء، تجمهرت حولها كوكبة مؤلفة من أقدم اثنتي عشرة سيدة من بائعات السوق الشعبية. سألتها إحداهن إن حقاً أودعت جدتها دار العجزة.

– وما شأنكن، أنتن؟

هكذا ردَّت لويز آن، من دون أن تتمكن من إخفاء حرجها، على الرغم مما بذلته من جهد. أجابت رئيسة الوفد:

– ما شأننا؟ شأننا أننا لا نُبقي معنا شابة ترفض أن تردَّ لأهلها ما وهبوها إياه في طفولتها. مرة أخرى، نسألك يا لويز آن: ماذا فعلت بجدتك؟

– قلت إنني لست مرغمة على إعطاء تبريرات.

Twitter: @ketab_n

– ونحن، علينا أن نبلغك، باسم جميع الرفيقات، سواء أمن بائعات الزهور أم الفواكه أم الأسماك، باسم السوق الشعبية كلها في الواقع، بأن عليك مغادرة مكانك في السوق إن أردت ألا تكوني منبوذة وألا تُمرَّغي في الوحل في كل مرة ستجسرين فيها على العودة إلى هنا.

– هذا ظلم...

ردَّت المذنبة بنبرة أقل وثوقاً في هذه المرة، مع الحرص على التظاهر بالتماسك. استطردت:

– هل تنوينَ حرماني من رزقي؟

– اذهبي واحصلي عليه في مكان آخر. باريس مليئة بالأسواق الشعبية.

– هل من صلاحياتكن مراقبة كل شاردة وواردة في حياتي؟

– نعم، عندما تجعلنا نحس بالإهانة.

– ويحق لكن الحكم عليَّ بالعار؟

– نعم، إذا كان ذلك ضرورياً لتفادي عارنا نحن. نقولها لك

Twitter: @ketab_n

بكلمة أو بمئة: لقد فرَّطتِ في جدتك نزولاً عند رغبة خطيبك. أخللتِ بالعهد الذي قطعتِه على أبيك محتضراً، وفقدتِ إنسانيتك بإرسال جدتك إلى مشفى. أنت، بنفسك، رقَّنتِ اسمك من قيد السوق. ولم يعد لك مكان بين ناسها الطيبين.

– ومن قال لكن إن إمكاناتي تتيح لي إبقاء جدتي عندي، وتعيين ممرضة دائمة للعناية بها؟

– عذر سيئ. دكانك أحد أكثر دكاكين الأسماك رواجاً في سوقنا. أنت تجنين في صباح واحد ما يسدُّ احتياجاتك لأسبوع.

أضافت رئيسة الوفد، من جانبها، وهي تشير بيدها إلى حلي لويز آن:

– يا للحمقاء! تجرئين على لفِّ سلسلة بقيمة 500 فرنك حول رقبتك، وتعليق أقراط ثمينة على أذنيك، واعتمار قبعة أثرياء من الدانتيل على رأسك... ثم تبعثين جدتك إلى مشفى. غدارة! منحرفة! اغربي عنا. احملي عارك وندمك على ما اقترفتِه إلى مكان آخر.

Twitter: @ketab_n

ردد باقي الوفد، تقريباً في الوقت نفسه، مع بائعات أخريات انضممن إليهن بعدما استقطبتهن غرابة المشهد:

- أجل، فلتبتعد، وبسرعة. تقاعست عن أكثر الواجبات قدسية، وأخلَّت بالشرف. علينا العهد، لا واحدة منا ستقبل بأن تظل هذه بين ظهرانينا. هذا سيثير اشمئزازنا، وسيشجع أولادنا على إغفال احترامنا بدورهم، يوماً ما. فلتُولِّ بعيداً، وحالاً.

حاولت بائعة السمك المسكينة، عبثاً، الاعتراض على قرار الحكم الصادر عن زميلاتها، ومواجهة صرخات الإدانة والاستهجان المنبعثة من حولها من كل جانب. اضطرت إلى الانسحاب، بمشية خائرة، وعيناها غارقتان في الدموع، وجبينها متورد. ندمت، إنما بعد فوات الأوان، على تلبية رغبة خطيبها بتلك السهولة. عللت النفس بالقول إنه، على الأقل، بعطفه وحبه واقترانه بها، سيعوض لها ويمحو المذلة التي تلقتها تواً، وفقدان حانوتها الرائج المُربح. لكنها لم تكن إلا في منتصف العقاب.

فبعدما علم ساعي البريد بالتشنيع العمومي الذي ضرب لويز آن، وبالحكم الصادر عليها من مجمل شعب السوق، بدأ يشعر أن تعلقه بخطيبته يتلاشى يوماً إثر يوم. فالتعلق من دون تقدير زائل.

Twitter: @ketab_n

جعل أولاً يخفف لهفته في زيارتها، ويتباطأ، ثم بات يتكر ألف عذر وعذر لتأجيل موعد القران. في النهاية، أحاط لويز آن علماً بأنه سيفقد وظيفته، ومعها آفاق الترفيع الإداري الأكيد، لو تزوج آنسة باتت محط تهكم الناس واحتقارهم. ومع أنه أقر بضلوعه في ما اقترفته، فسخ خطوبته.

اضطرت الشابة المنبوذة إلى العمل في أبعد أسواق باريس عن السوق الشعبية السابقة، فلم تجد المحاسن نفسها، ولا زبائن عديدين مثل السابق. وما زاد في خيبتها أن المشلولة ماتت غماً، إذ لم تقدر على تحمل فكرة إبعادها، منسية، في دار عجزة. فقدت لويز آن مرحها وطبعها البشوش. وصارت تكتفي ببيع بضع سمكات رنكة مملحة، أو بعض من أسماك المياه العذبة تلك، غير المحببة لدى المشترين. وباتت تحمل بضاعتها من مفرق إلى مفرق، ومن حي إلى حي، سعياً إلى عرضها. هكذا، درجة إثر درجة، انحدرت نحو البؤس الحقيقي. وأخيراً، انتابها مرض نجم عن عذاب خفي كان يحزُّ في نفسها، تلك النفس التي فيما مضى بالغة الحبور والانفتاح. أرغمت، بدورها، على اللجوء إلى مستشفى، حيث ذاقت مرارة العزلة والبعد عن الأهل والأحبة. أقرَّت

Twitter: @ketab_n

أخيراً بأن العدالة السماوية تختم الأولاد الجاحدين بختم الغضب، وتذيقهم، عاجلاً أم آجلاً، ما أذاقوه من عقوق لوالديهم.

Twitter: @ketab_n

الإطفائي جوزيف

لا أعرف مهنة أكثر نفعاً، وأجدر بالإطراء والثناء، من مهنة أولئك الرجال المقدامين البواسل، الذين يهبُّون للمساعدة ويُهرعون حيثما تندلع نيران، وإلى أي مكان تستنجدهم فيه صرخاتُ العوام. إن لهم ألف صفة حميدة، وهم الذين يواجهون كل يوم ما يساوي مخاطر ساحة وغى. يَجمعون، في آن، التجرد النبيل وشعلة الشجاعة. هؤلاء جنود—مواطنون بحق، ومن دواعي سروري العظيم أن أسرد هنا قصة أحدهم، المثيرة للإعجاب، التي استأهل عنها بجدارة جائزة محبي البشر الباريسيين.

من بين إطفائيي أحد أحياء العاصمة، تألق جوزيف ل. ببراعته في تسلق المباني المحترقة، وأيضاً بجسارته وكفاءته في الغوص في الماء، ما أمَّن له مراراً تذوق نشوة إنقاذ أبناء جلدته، تلك اللذة التي لا يقوى الكلام على وصفها. هكذا، بدا الماء والنار العنصرين اللذين شيد جوزيف ل. عليهما سمعته، المستحَقة تماماً، كأكثر رجل جرأة وخصالاً راقية.

Twitter: @ketab_n

في نهاية الخريف، اضطرم حريق ليلاً في مخازن شاسعة يمتلكها أحد مموني الحرس الملكي. ومن المخازن، المليئة بمواد سريعة الاشتعال، انتقلت النيران إلى المنزل الفخم لصاحبها، البارون ديسكارڤيل. كان هذا أباً لأسرة كبيرة. فلم يفكر، بادئ ذي بدء، سوى بإنقاذ أطفاله. حمل الصغار منهم في خضم اللهب، متمنياً أن يقدر على درء الخطر المحدق عن الآخرين جميعاً.

في عز الهول، نُسيت واحدة، كانت رضيعة في سن عامين، نائمة نوماً وادعاً في غرفة متاخمة لجناح أبيها، الذي كان بابه أغلق بالمزلاجين. استيقظت الطفلة، فجعلت تطلق صرخات مستميتة. سمعها جوزيف، فكسر باب جناح الأب بخمس ضربات فأس، أو ست، ثم اجتاز غرفة خدمة صغيرة، ثم مكتب البارون ديسكارڤيل نفسه، إلى أن وصل إلى الطفلة فانتشلها، وأتى بها إلى والدها، الذي أسكرته الفرحة. أعرب هذا عن رغبته مكافأة هكذا تفانٍ وإيثار. لكن الإطفائي، إخلاصاً لشعاره، صرح أنه لن يقبل أي مكافأة، مؤكداً أنه لم يقم سوى بواجبه.

وعندما روى جوزيف أنه أرغم على كسر باب جناح الأب لبلوغ الطفلة، تذكر البارون أنه كان ترك على منضدته أغراضاً مهمة متفرقة، بما فيها محفظة متوسطة الحجم، تضم 40 ورقة

Twitter: @ketab_n

نقدية. فهرع إلى مكتبه لكي يلمَّ تلك الأشياء ويضعها في غرفة آمنة، بعيدة عن النيران. لكنه فوجئ باختفاء المحفظة. بحث في كل مكان، بتوجس كبير، فلم يجدها. اقتنع بأن الإطفائي وضع يده على الأوراق النقدية الأربعين، بما أنه الوحيد الذي دخل مكتبه. فأزمع الإسراع لئلا يتمكن جوزيف من إخفاء المسروق قبل أن يُصار إلى تفتيشه. فركض إلى نقيب رجال الإطفاء لإبلاغه بالسرقة، وقلبه مليء بالأسى جراء الاضطرار إلى اتهام شاب أنقذ طفلته قبل هنيهة. لكنه رضخ لحكم الظرف القاهر، وأحاط النقيب علماً، وطالب بأن يَحكُم بالعدل.

كان نقيب الإطفائيين كثير التقدير تجاه جوزيف، بناءً على سلوكه الذي لا غبار عليه. فحرص، في هكذا حال عصيبة وموقف شائك، على التزام أقصى حذر ممكن. أومأ إلى مرؤوسه أن يتبعه، واصطحبه إلى جناح البارون، الذي سبقهما إلى هناك. انتفض جوزيف هلعاً، وشحب وجهه، عند سماع التهمة. أراد الكلام، فلم يقوَ. بقي مشدوهاً لحظات. ولما أفاق أخيراً من هول الصدمة – التي شكلت دليل إثبات من منظور البارون – عرض أن يخلع ملابسه كلها حالاً لكي تُفتش بأقصى تمحيص. وما قيل، فُعل. فلم يوجد أي أثر كان للمحفظة الثمينة، ولا ما احتوته.

Twitter: @ketab_n

هلل النقيب، وهو يصافح جوزيف بحرارة:

– كنت متأكداً تماماً من براءته.

اعترض البارون ديسكارڤيل بالقول:

– لكنه شحب واصفرَّ!

– شحبتُ غضباً وسخطاً، ردَّ جوزيف، وعيناه تقدحان شرراً. لم أكن أتوقع أن أجازى على ذلك النحو على صنيعي لك. وإذ أتعذب من اتهامك إياي باطلاً، أنت ستتعذب أكثر. طوال عمرك، في كل مرة ستقبِّل فيها طفلتك، ستحمرُّ خجلاً وأنت تتذكر كيف أهنتَ من أنقذها.

تدخل النقيب ملتمساً:

– أجروْ على الأمل، يا حضرة البارون، بأننا جميعاً، أنت ونحن الاثنان، سنحفظ سراً مدفوناً في أعمق أعماق قرارة أنفسنا، تفاصيل المشهد الغريب الذي حصل لتوه.

قال جوزيف بغتة:

– بقدر ما يتعلق الأمر بي، يا حضرة النقيب، لا أتعهد بأي شيء. بل أصرُّ على أن أكشف لرفاقي كلهم كيف يكافئ الناسُ خدماتِنا.

Twitter: @ketab_n

ذلك ما تمّ فعلاً. إذ لم يكف الإطفائي عن التحدث إلى أفراد الثكنة، سارداً حيثيات المهانة التي تحملها. كان يضيف، وهو يضع يده على سيفه: «لولا الشيب في بعض شَعر البارون ديسكارڤيل، لعاتبته بالسيف، ولكانت أذناه الآن معلقتين على باب محرسنا. إنما ما من شيمتي التعرض لمن هو أضعف مني بكثير. لذا، أكتفي باحتقاره».

على الرغم من كل شيء، تشبث في عقل البارون شكٌّ خفي، عصي. شهر بأكمله مضى من دون أن يرضى بتقبل براءة الإطفائي. ظل متأرجحاً بين الامتحان الذي اجتازه الأخير، بنجاح، والمظاهر التي بدت مجتمعة لكي تجرّمه. لم يُطِق البارون خسارة 40 ألف فرنك، فنوى رفع دعوى إلى الادعاء العام. وهناك، في صباح اليوم الذي كان يهمُّ فيه برفع شكواه، فرَّغ خادمه إناء صفيح كبيراً، كان مهملاً قرب منضدة العمل، مليئاً بـأوراق ومستندات ممزقة. فوجد بينها محفظة الجلد الأسود المنشودة تلك، ففتحها متلهفاً، فوجد الأوراق المالية الضائعة، فهرع إلى سيده لاهثاً، وسلّمه إياها والفرحة العارمة على محياه.

من العسير وصف دهشة البارون وندمه. أغذَّ السير حالاً إلى ثكنة الإطفائيين، وتوسل إلى ضابطها أن يصفَّ رجالها.

Twitter: @ketab_n

اصطفوا، فأقبل البارون على جوزيف، واعتذر اعتذاراً علنياً ومشرفاً عما بدر منه من شك ظالم، وعرض عليه أي تعويض يريده. قال الإطفائي:

- لولا سنوات عمرك الستون، لما رضيت إلا بتعويض واحد، أنت تعرفه. لكنني لا أخوض نزالاً غير متكافئ. كل ما أريده منك، يا سيدي، هو أن لا تحمِّل أي إطفائي أي وضاعة كانت إلا إذا رأيته بأمِّ عينيك يقترف ما تتهمه به

سعى البارون ديسكارڤيل سعياً حثيثاً إلى إقناع جوزيف بقبول تعويض ما لما تحمله من مهانة. لكن، لا الذهب ولا النقود لم تُغرِ رجل الشرف. كفاه أنه اغتسل من تهمة مقيتة أمام أقرانه كافة، الذين ارتفع شأنه في أعينهم درجة.

مع ذلك، لاحقاً، تردد اسم البارون ممون الحرس الملكي كثيراً على لسان جوزيف. لم يتحدث عنه قط من دون حركة تأفف، وصوت متحشرج، ولا من دون التشديد على تأسفه على عدم قطع أذنيه. مَن يُتهم باطلاً، يحتفظ دوماً ببعض ضغينة، تتأجج من وقت لآخر. ومن غير العدل لومه عليها.

Twitter: @ketab_n

أعقب الشتاءُ الخريفَ. إبان ذلك الموسم القارس، اندلعت حرائق عديدة، نمَّ فيها جوزيف مجدداً عن شجاعته وشهامته. لكن، من بين مظاهر البطولة الحقيقية الكثيرة التي فرض من خلالها الإعجاب، أكثرها تألقاً تلك التي سأقصها آتياً بأكبر قدر من الإخلاص للواقع. لعل سردي يثبت أن رُقي النفس يشمخ عند عوام الشعب بالقدر نفسه مما هو عند عِلية قوم المجتمع.

لم يكن شتاء 1829 على قسوة غير معتادة. لكنه طال طولاً مرهقاً وغير صحي. فكان له في باريس أثر فادح ومفجع، إذ عانى السواد الأعظم من سكانها من برد رطب وتقلبات في الطقس آذت حتى من ينعمون بأفضل عافية. وإذ أبدت الجماهير العاملة، ومعها المتسكعون والمشردون، صبراً طيباً أمام الحرمان، أحاط المترفون أنفسهم بكل ما يُسر الوجود، ونهلوا من ملذات الفخامة والفخفخة والبحبوحة.

من تلك الملذات، ثمة واحدة يسرف فيها الشباب في تلك الفترة من السنة، إلا وهي تمرين التزلج، الذي يتيح عرض قوتهم وجمال أجسامهم وكل ما منّت عليهم به الطبيعة من منن. تمارَس تلك الأنشطة البهية، لكن الخطيرة، بشكل خاص قرب قناة «أورك» وأحواض «لا ڤيلت»، في باريس. يتوافد للتفرج جمهور

Twitter: @ketab_n

غفير، يشغل بحضوره ضفتي القناة، وبصيحات استحسانه، يحض المتزلجين على الجسارة. نفرٌ يدفع على زلاجات أشخاصاً متأنقين، تُسكرهم تلك المتعة العابرة. ونفر آخر، وهو يستعد للوثوب بقوة وبراعة، يرسم على الجليد، بخط واحد، إما رقماً وإما صورة زهرة. يصطف هؤلاء على خط واحد، وينطلقون مع إشارة زعيم المجموعة، فيقطعون مسافة معتبرة على سطح القناة المتجمدة. ويحظى الفائز بجائزة معينة، يوزِّع جلُّ ريعها على الصعاليك الكثيرين ممن يتقاطرون إلى المكان في أمل أن يفتح أولئك الأثرياء المتبطلون صُرَّة نقودهم.

إلى حد ما، يخيل إلى المرء أنه يحضر الألعاب المهيبة التي تقام في سان بطرسبرغ، في روسيا، على نهر «نيڤا»، المتجمد في عز الشتاء البارد. لكن جليد تلك الربوع الشمالية أكثر سُمكاً وصلادة، بالتالي أماناً، من جليد منطقتنا. هكذا، الحوادث عندهم أندر بكثير من الحوادث عندنا.

خلال الشتاء الذي تلا اضطرام حريق في مخازن البارون ديسكارڤيل، ومنزله، حلَّ حدث مهم على قناة «أورك»، في جزئها الواقع بين حاجز «لا ڤيلت» وحي «فوبور دو تامپل». تجمع متزلجون شبان من أرقى عائلات العاصمة حول مأدبة غداء

Twitter: @ketab_n

كبرى، يدفع تكاليفها الخاسرون في المنافسة لمصلحة الفائزين. كانت المأدبة هائلة، امتزجت فيها صرخات الفرح والمرح بأصوات فتح زجاجات المشروب، الذي زاد في سخونة رؤوس المدعوين، المستعرة أصلاً.

انتهت الحفلة، وعاد الجميع إلى ضفاف القناة، كل يعدُّ نفسه بطلاً وهو يصعد القناة على مزلاجيه. وكل يسرف في أداء حركات نابعة من قريحة متفتحة، أسهمت في إشعال جذوتها أعداد الكؤوس العديدة المرفوعة قبيل ذلك. وبعد استنفاد الألعاب والحركات الشائعة، راهن ثلاثة من أكثر الحاضرين طيشاً على إنجاز حركات راقصة وهم يتزلجون، بما فيها رقصة الإحضار والعدو، موضة ذلك الموسم في صالونات العائلات الراقية. فأدَّوها فعلاً، مُجارين أكثر الراقصين براعة. لكن، في اللحظة العصيبة التي ألف فيها الثلاثي الطائش حلقة، انكسر الجليد تحت أرجلهم على حين غرة. وفي رمشة عين، غاصوا تحت السقف الجليدي المحيط بالثغرة التي وقعوا فيها.

تعالت من أفواه المتفرجين صرخات هول تقطع القلب. كان الإطفائي جوزيف يتسكع غير بعيد عن المكان، مدخناً الغليون. سمع الصرخات، فركض، على عادته، إلى حيث يُستنجد. سأل

Twitter: @ketab_n

عن مردٍّ اللغط. أحيط علماً بما حصل تواً. فنزع ملابسه في الحال، وتوجه نحو الحفرة التي أحدثها المغامرون الثلاثة في الجليد على سطح القناة، وغطس فيها. جعل يبحث تحت السقف الجليدي الشفاف. وبعد نصف دقيقة، خرج حاملاً أحد المساكين الثلاثة، فسلمه إلى الحشد للاعتناء به، ثم عاد مسرعاً إلى الحفرة، والفرحة تغمره لإنقاذ واحد على الأقل من بين ثلاثة غرقى. غطس، فلم يره أحد لفترة. لكنه عاد وظهر من تلك الفتحة، الوحيدة الممكن الخروج منها. أعلن أنه لم يجد أحداً. صرخ الجميع:

– لا يزال هناك اثنان.

– حسناً سأرتشف كأساً من «ماء الحياة»، ثم أعود.

شرب الكأس، لتسخين جسده، برشفة واحدة، ثم غطس حالاً، للمرة الثالثة، فعاد حاملاً المتزلج الثاني، فاقد الوعي، ومن دون حراك. سلَّمه إلى من تهافتوا للإغاثة، فغطس للمرة الرابعة، وبقي تحت الثلج ما مكنته إياه قواه. ظهر من الفجوة، ويداه متجمدتان وتعبيرات وجهه تعكس اليأس والخيبة. لم يقوَ على الكلام من شدة البرد.

صرخ نحوه الشاب الأول الذي أنقذه:

Twitter: @ketab_n

– يا منقذنا، يا صاحب الفضل علينا، أستميحك ألا تتخلى عن رفيقنا الغالي. إنه سليل أسرة ميسورة مشرفة، ستجزيك على جميلك بما تستحق. وهو ضابط شاب في الحرس الملكي، الابن البكر للبارون ديسكارڤيل...

– ديسكارڤيل! صرخ جوزيف بحركة تأفف.

– نعم، ديسكارڤيل، الصيرفي الـثري، صاحب مخازن التموين، الذي يسكن في شارع «فوبور پواسونيير».

ردَّ الإطفائي:

– لا عليك! أتذكره جيداً. اتهَمني بسرقة محفظته. لكنني أنسى ضغينتي عندما يناديني نداء الإنسانية. إليَّ بكأس أخرى من «ماء الحياة».

غطس جوزيف للمرة الخامسة. ولما لم يظهر مجدداً، قلق القوم، وأحسوا بالذنب لاستعطاف شهامته واستدراج تفانيه، وربما التسبب في موته. إلا أنه خرج من الفجوة، ساحباً على كتفيه الغريق الثالث، الذي هرع الحاضرون إلى حمله إلى ضفة القناة.

Twitter: @ketab_n

أعلن جوزيف، يائساً، وهو يضع يده على قلب الضابط الشاب:

– إنه ميت. إنه ميت. من بين الثلاثة، كان إنقاذ هذا سيسرني أكثر من غيره لكي أنتقم من أبيه وأثبت له وأنا أسلمه إياه أن... آه! لكنه ليس ميتاً. بدأ قلبه يخفق... ياليتني أقدر على جعله يواصل النبض...

حالاً، مدد الإطفائي جسد ديسكارڤيل الابن على أرضية الضفة، وغطاه بجسده، ولصق فمه على فمه، وأعمَل قوة رئتيه الجبارة لكي ينفث الهواء في رئتي الغريق المنتشَل، وسحب ما فيهما من ماء يشلُّهما. وبعد نفث نفثات هواء متعاقبة عدة من فمه، وبذل جهد كبير، مسح بقطرات من «ماء الحياة» صدغي الضابط اليافع المحتضر، وبطنه، فبدأت تظهر على هذا علامات الحياة.

وبينما واصل الحاضرون الكثيرون إسعاف الضابط المنتشَل من الماء، ذهب جوزيف إلى بيت أحد أصدقائه، ممن يقطنون الجوار، بغية تغيير ملابسه وتنشيط أطرافه المخدَّرة برداً. حال عودته، ارتمى عليه الشبان الثلاثة الذين أنقذهم، وجعلوا يحتضنون منقذهم ويقبلونه، مغدقين عبارات الامتنان والاعتراف بالجميل. لكن، من بين الثلاثة، كانت مشاعر الشاب ديسكارڤيل لا توصف، وهو الذي يدين بالحياة لرجل شهم كان أبوه اتهمه ظلماً.

Twitter: @ketab_n

صرح ديسكارڤيل الابن للإطفائي:

– لم تشهد الإنسانية من قبل شهامة وبطولة كشهامتك وبطولتك. لم ينمَّ يوماً أغلى أخ ولا أعز صديق عن شجاعة ومثابرة أكثر منك. ولم يلجأ أحد إلى وسائل أكثر فاعلية مما فعلته من أجل إعادة أحاسيسي. ومع ذلك، كنت تعرف أنني ابن من اتهمك باطلاً!

– هذا، تحديداً، ما ولد عندي رغبة قوية في إنقاذك، أنت بالذات. فنحن، أبناء الشعب، ليس في حوزتنا وسائل أخرى لإفهام الأغنياء بأننا أندادهم، نساويهم ولا نقل عنهم شأناً.

– ثق، يا جوزيف الطيب، لن تبارح هذه الحقيقة ذاكرتي أبداً. سأشيع في كل مكان صنيعك إليَّ. سأخبر مسؤوليك في العمل، الذين، قطعاً، لن يتعجبوا لما عرفوه عنك من مآثر. لكنني لن أرتاح قبل أن تحصل على ما تستحق من إكرام عادل لجميل صنائعك وحَسَن خِلالك.

أثناء ذلك الإعراب الجياش عن المشاعر، كان رفاق الشبان الثلاثة الذين أنقذهم جوزيف يجمعون لهذا الأخير مبلغاً من المال. أفرغوا ما في جعباتهم في قبعة مقلوبة، فوصل المجموع

Twitter: @ketab_n

500 أو 600 فرنك. ولما قدموا القبعة إلى الإطفائي، أخذها هذا ورماها نحو القناة، فتناثرت قطع الذهب والفضة.

صرخ، بكل ما يتحلى به الجندي–المواطن من عزة نفس:

– ويحَكم! أتظنون أنني فعلت ما فعلت من أجل مكسب نقدي؟ كل ما سأقبله منكم، يا سادتي، مجرد بضع رشفات من مشروب جيد، لكي تسخنني وتقويني. وأعترف أنني بحاجة ماسة إلى ذلك.

حالما أنهى عبارته، حمله الشبان على أكتافهم إلى مطعم شهير، باسم «قاندانج دو بورغوين» (ما يعني «قطف الكروم في مقاطعة بورغوين»). وهناك، جددوا مأدبة غداء ذلك اليوم، وعاملوا جوزيف كواحد منهم، ندٌّ يساويهم منزلة ومقاماً، وشرفوه كأحد أفضل رجال الأرض. حملوا أنخاباً عديدة على شرفه. لكن النخب الذي لقي أطيب صدىً كان مصحوباً بالمنطوق التالي:

– في صحة سلك رجال الإطفاء المحترم.

ردَّ جوزيف:

Twitter: @ketab_n

– أقبل هذا التكريم باسم زملائي، الذين أجروٴ على توكيد أنهم سيكونون دوماً جديرين بالتشريف الذي تولونه إياهم.

علق الشاب ديسكارڤيل:

– كيف يمكن لامرئ أن يشك في ذلك إذا كانت التزكية تأتي من مثلك؟

لمعت الفرحة على جبين كل واحد من الحاضرين، من دون استثناء. لكنها ازدادت عندما ظهر البارون ديسكارڤيل نفسه، بعدما أبلغه ابنه بما حصل. هو أيضاً، ارتمى في أحضان جوزيف، وقلبه الأبوي في غاية الخفقان والانفعال، بحيث لم يتمكن من التفوه بكلمة. أخذ بيدي الإطفائي المتينتين المُحسنتين، اللتين أنقذتا ابنه الغالي، فبللهما بدموع حارَّة. ثم، بعد استعادة القدرة على الكلام درجة إثر درجة، تساءل مؤنباً نفسه:

– كيف قدرتُ على الشك فيك؟ كيف تجرأتُ على اتهامك؟

أجاب جوزيف:

– دعنا من الحديث عن ذلك الأمر، ياسيدي البارون. تألمت لذلك ألماً شديداً وقتها، هذا لا يُنكر. لكن الجرح التأم، والحريق انطفأ.

Twitter: @ketab_n

استطرد البارون:

– لن ينطفئ في خلدي قط. لن أنسى ما حييت. وبما أن من المستحيل، معك، رد الجميل بما يلهث كثيرون غيرك وراءه، لن يغمض لي جفن من دون إيلاء بطولتك وخدماتك النبيلة حقها.

بعد مضي بضعة شهور، تسلم جوزيف نجمة الشرف من يدي العقيد مسؤوله، الذي طالما كنَّ لمرؤوسه بالغ التقدير. ثم حصل جوزيف على ترقية، ورُفع إلى رتبة ملازم إطفائي. ولا يزال، إلى اليوم، على رأس سرية يقودها مع كل ما يتحلى به الزميل المحبوب من ود وتفهم، وسمعته الطيبة تكبر يوماً بعد يوم في أعين رجاله، الذين يلهمهم الرغبة النبيلة في اتخاذه قدوة ومثالاً.

Twitter: @ketab_n

الحساء الاقتصادي[1]

لا غنى عن الاقتصاد لطبقات النظام الاجتماعي كافة. من دون الاقتصاد، وهو بالأحرى واجب نوعاً ما، ينزلق الكادح البسيط نحو البؤس المدقع، وتفقد الطبقة الوسطى استقلالها السعيد، ويُرغم الموسر على تحمل حرمان مؤلم، ويمرغ السيد المتنفذ مجد لقبه، ويُعرض العاهل ثروة الدولة للخطر، وسعادة الشعب وألق التاج. نحن جميعاً عرضة لعوادي الزمن ونزوات الثروة. لكن، لمواجهتها، وهبتنا السماء قابلية التوفير والتحسب للمستقبل، وأمرت بألا يعمينا متاع الدنيا، لحظة التلذذ به، عن إمكانية انقلاب الأمور في اللحظة التالية، وألا ينسينا أسعد الأيام التهيؤ لغده.

إلى الطبقة العاملة، إلى تلك الشريحة الكبيرة من الشعب، التي تستأهل تقديرنا وعنايتنا، يتوجه مغزى هذه الحكاية التاريخية، هذه اللوحة المرسومة عن الطبيعة، التي تتردد الأمثلة الواردة فيها

(1) في الماضي كانت الوجبات المقدمة للفقراء صدقة تسمى «الحساء الاقتصادي soupe économique». الآن، باتت تسمى «الحساء الشعبي soupe populaire». وهي وجبات تقدمها جمعيات ومؤسسات خيرية، لاسيما في الشتاء، وعموماً في أماكن معينة وأوقات محددة (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أكثر من اللزوم. عسى العمال، وأرباب العائلات، ممن سيقرؤون هذه السطور يقتنعون بأن لذة التبذير الزائلة تفضي سريعاً إلى ندم وتوبة. من دون نظام واقتصاد، لن يقدر أحد قط على إحلال السلام في المنزل، وهو أول حاجة حياتية دائمة، ولا استحقاق التقدير العام، الذي من دونه لا يُحسب حساب لامرئ.

كان مارسيل وباستيان نحاتَي أحجار ماهرَين، يعملان منذ سنوات في الورشة نفسها، العائدة لأحد أشهر مقاولي البناء في العاصمة. كلاهما كان متزوجاً وأباً لعدة أولاد. كان لمارسيل ثلاث بنات، ربَّتهن أمهن على التعود على العمل وأعظم مظاهر طاعة الوالدين والبرّ بهما. أما باستيان، فكان عنده ثلاثة أبناء، في سن ثماني وسبع وست سنوات. كانوا ثلاثة عفاريت لطفاء محبوبين، إنما متروكون على سجيتهم أكثر من اللزوم.

وإذ تمكنت زوجة مارسيل، محاطة ببناتها الثلاث – اللائي حرصت عل تعليمهن الخياطة والتطريز بنفسها –، من فرض نظام بديع في منزلها الأخاذ، فإن زوجة باستيان، البدينة المرحة، كانت تهوى الاحتفال والتمتع والثرثرة. عُرفت في الحي بأكمله بكلامها الحلو الفكه. وكانت، عندما تذهب إلى التسوق، تتوقف عند بائعة الفواكه لتجاذب أطراف الحديث،

Twitter: @ketab_n

وعند الخباز للكلام عن كل شاردة وواردة، وما إلى ذلك. غالباً ما كانت تعود إلى المنزل بعد غياب ساعتين أو ثلاث. في تلك الأثناء، كان أبناؤها الثلاثة يتشاجرون ويتعاركون، فتجدهم هذا متورم وجهه، وذاك ممزقة ملابسه، وكلهم يتضور جوعاً، فتهدئ جوعهم بكعك وفواكه.

بقدر ما كان مارسيل وباستيان متفاهمين ومتعاضدين، يعين واحدهما الآخر في أي ورشة يرسلان للعمل فيها، بقدر ما كانت زوجتاهما مختلفتي المزاج والطباع والعادات. هكذا، لم تكن الأسرتان على تواصل كثير بينهما، على الرغم من أنهما كانتا جارتين، تقطنان الشارع نفسه، على مقربة الواحدة من الأخرى. كان يحلو لزوجة باستيان التندر مع ثرثارات الحي على طبيعة زوجة مارسيل المنغلقة المتحفظة، وتصفها بالمتزمتة والبخيلة، والمستبدة المرائية، التي يركع زوجها أمامها كعبد.

زوجة مارسيل، من جانبها، من دون أن تفصح عن أفكارها إلى الخلق، كانت تنظر إلى حرم باستيان على أنها مجرد ثرثارة تافهة، نقيقها مزعج وخطير، وأنها متهورة غريبة الأطوار، لا تسعى سوى إلى المتعة والتبطل، ولا تكترث بعائلتها وبأمور الحياة المهمة. نبع خلاف المرأتين بشكل خاص من غيرة إحداهما من

Twitter: @ketab_n

بحبوحة منزل الأخرى، ونظافته، وهندام بناتها الثلاث، البسيط لكن الأنيق. في المقابل، غالباً ما وجدت تلك الأخرى أبناء غريمتها الثلاثة بملابس مهلهلة، وهم يتماسكون بالخناق ويتلببون في الشوارع، بعيداً عن دارهم. وغالباً ما أعادتهم إلى أمهم، التي كانت تشعر وقتها بالمهانة لكون غريبة تفاجئها مرتدية، بدورها، ملابس غير نظيفة. في هذه الأثناء، كان ثوب جميل من قماش كتان إنجليزي معلقاً على السرير، وقربه ياقة من شِفٍّ مدينة «تول»، ينتظران أن تتألق بهما زوجة باستيان في اليوم التالي في حفل «غران مارونييه» الراقص، في حي «لا ڤيلت». اعتاد باستيان وزوجته، كل يوم أحد، على اصطحاب أبنائهما الثلاثة إلى أرقى حانات حي الحاجز، والعودة منها متأخرين، مبددين جزاء أسبوع من الكدِّ في نهار واحد.

لم تجر الأمور على ذلك النحو بالنسبة إلى مارسيل وقرينته. كانا يمضيان نصف نهار الأحد في أداء الواجبات الدينية مع بناتهما الثلاث، ثم في حساب النفقات وتحديد ما يلزم للتوفير. وكانت الأم تسلي بناتها بقراءة كتب مفيدة لهن، ثم تحضر وجبة شهية، أقل كلفة بكثير من غداء في مطاعم «لا ڤيلت». إثر ذلك، كانت الأسرة تذهب سيراً على الأقدام إلى متنزه «حديقة

Twitter: @ketab_n

النباتات»، أو إلى ضفاف السين في حي «بيرسي»، وأحياناً حتى غابة «ڤانسين». وهناك، عصراً، تحت ظلال الأشجار الضاحكة وعلى العشب الندي، يتناول الخمسة لُمجة بسيطة، أي وجبة خفيفة، من خبز وكعك «إيشوديه»، أو بضعة مقانق وسجق، أو خبز وجبن. كان مارسيل يحمل الطعام في سلة صغيرة، ويشتري شرباً من أقرب مقهى في الطريق.

كانت الضحكات تنطلق، والبهجة تسود، من دون سماع كلام السكارى ولا أصوات المغنين. هكذا، كانت براءة الطفلات الثلاث محفوظة في أصفى نقاوتها، والآصرة العائلية المقدسة معززة. ثم، حال تكفُّ الشمس عن إنارة المشهد الحالم، كان الأب والأم والبنات يسيرون حتى «باب التاج»، ومنها يستقلون عربة توصلهم إلى البيت لقاء 30 فلساً. لم تكن الكلفة الإجمالية لتلك النزهة النافعة تتعدى 5 فرنكات البتة، بينما كان باستيان يصرف وعائلته 15 إلى 20 فرنكاً. وكان، تقريباً في كل مرة، يعود ساخن الرأس، غير مستعد لاستعادة العمل في الصباح التالي.

عندما كان مارسيل وباستيان يعاودان العمل يوم الاثنين التالي (في الواقع، لم يكن باستيان يصل قبل منتصف النهار في معظم الأسابيع)، يمكن تصور أنهما كانا يدردشان عن متع الأحد

Twitter: @ketab_n

المنصرم، ويقص كل منهما على الآخر كيف أمضاه مع عائلته. باستيان، شاحباً ومخدَّر الأطراف، كان يروي ما أعجبه في حي «لا ڤيلت»، ويعدد بفخر زجاجات النبيذ التي احتساها، ويسرد تفاصيل مباريات لعبة البلياردو التي خاضها، ويصف الرقصات التي أدتها زوجته، ويتحدث عن ألعاب أبنائه الثلاثة، الذين كانوا يتحولون إلى عفاريت أكبر يوماً إثر يوم، ويتضح أكثر وأكثر أنهم سيسيرون على خطى والدهم سلوكاً وشخصية. أما مارسيل، فكان أكثر هدوءاً وتحضراً لبدء أسبوع العمل. كان يسرد نزهته مع أسرته في غابة «ڤانسين»، والوجبة المتواضعة التي أفرحت زوجته وبناتهما الصغيرات الثلاث، اللائي بدأت صفاتهن الحميدة تكبر وتقوى بفضل الرعاية الدءوبة من جانب أمهن الرائعة.

ذات يوم، بدأ باستيان النقاش:

– لطفاً، يا مارسيل، لا تحدثني عن أولئك المتزمتات المتكلفات، اللائي لا يسمحن لأزواجهن بشرب شيء، إلا ربما الجعة. أنت تنقاد كطفل إلى امرأتك. هذا صحيح. صدقني، ذلك يضر بهيبتك في أعين الزملاء.

ردَّ مارسيل:

Twitter: @ketab_n

– لا أنقاد أكثر مما تنقاد أنت. كل ما هنالك هو أن أذواقنا مختلفة. أنت تحب الاحتفال والسهر، وارتياد مجتمع السكارى وصالونات حي «غران مارونييه». أنا لا أرتاح إلا في الحقول، تحت أوراق الأشجار. من حق كل واحد أن يحافظ على كنزه. وأنا لا أعرف كنزاً أثمن من أخلاق بناتي.

– عزيزي مارسيل، يتضح جلياً من هذه الجمل الرنانة أنك ستظل دائماً مجرد ببغاء لزوجتك، تردد ما تقول. إنها بخيلة، لا تترك لك شيئاً في جيبك، ومتكبرة، تتعالى على بني جلدتها. لأنها تمتلك كومة كتب ضخمة، تظن أن التحدث قليلاً مع جيرانها سيُنزل من قدرها؟

– أنتَ يا باستيان، من قلت تواً إنني ببغاء امرأتي، ألستَ ببغاء امرأتك في هذه اللحظة، تردد بالضبط ما تقول؟ إنها تفضل لذتها ومتعتها على أي شيء. وتنفق كل ما تجنيه أنت. تنتقد كل من يلتزمون بالنظام ويحسنون الاقتصاد. لكن، دعنا من هذا كله. ما ذنبنا أن زوجتينا لا تتآلفان؟ هل علينا التخلي عن رفقتنا بسبب ذلك؟

– لا، قطعاً. وعليَّ أن أعترف لك بأنك قادر على إنهاء زجاجة نبيذ تقريباً بسرعتي ومقدرتي أنا! أنت رجل طيب. ولهذا

Twitter: @ketab_n

السبب، تحديداً، أشعر بالأسى لأن أراك منعزلاً، ومنقاداً. إنما، مثلما تقول، دعنا من هذا كله. فلنترك زوجتينا على عنادهما، ولنظل صديقين عزيزين.

– من كل قلبي، يا باستيان.

– ولكي لا يبقى أثر لأي ضغينة بيننا إثر ما قيل، دعنا ننظف قلبينا بكأس صغيرة من «ماء الحياة».

– بكل سرور، لكن بشرط أن يكون ذلك على حسابي. أصرُّ على أن أثبت إليك بأن زوجتي، المقترة والبخيلة مثلما تقول، تترك لي بعض الفلوس في جيبي.

لم يتكرر الموضوع على لساني نحاتَي الأحجار الرائعَين، اللذين عُرفا ببراعتهما في العمل. لم يتدخلا بعد قط كلٌّ في نمط عيش الآخر، وحرصا أكثر على عدم التحدث عن سلوكيات زوجتيهما المتضاربة. تركاهما تنق كل ضد الأخرى، من دون أي تدخل في انتقاداتهما المتبادلة. وفي حال تجاوز الحدود من جانب إحداهما، كان الزوج يمارس سلطته بحزم لكي يردعها.

أدى ذلك التفاهم المتبادل إلى تعزيز أواصر الصداقة والتقدير بين مارسيل وباستيان. وعدا عن الآحاد، التي ظلا يمضيانها

Twitter: @ketab_n

كلٌ وفق أهوائه، كانا يلتقيان في الورشة، حيث لم يندر رؤيتهما ينحتان سوياً كتلة صخر واحدة، يداً بيد، لكي توافق المواصفات المطلوبة من المهندس المعماري.

في أحد الأيام، عينا للعمل في مبنى ألحق بدار عجزة في باريس. فلاحظا، باهتمام بالغ، توزيع الحساء الاقتصادي لفقراء الحي من جانب راهبات. جمع غفير من متسولين ومتسكعين كان جالساً على مساطب من حجر، على طول جدار دار العجزة، وكل منهم يتلقى من تلك السيدات المحترمات إناءاً من الفخار يحتوي على حساء اقتصادي، لكنه كاف لتغذيته وإنعاش قواه. بعضهم كان يتناول الحساء، بالأحرى يلتهمه التهاماً، مستعيناً بملعقة من الخشب أو من القصدير جلبها معه. الآخرون، أفقر من أن يستطيعوا اقتناء تلك الآنية الضرورية، كانوا يستخدمون صدفات محارات وجدوها، فغسلوها في ماء نافورة قريبة.

كان المنظر مؤلماً ومؤثراً في آن واحد، ورهيباً في أعين أولئك الذين تقودهم أهواؤهم وتبذيرهم المجنون إلى البؤس. وكان مثالاً ثميناً مقدماً على طبق من ذهب بالنسبة إلى المترفين الميسورين، الذين بإمكانهم التخفيف من معاناة

Twitter: @ketab_n

جياع الإنسانية، والحصول على بركاتهم، بمجرد جمع ما يفضل من أكلهم، ولمّ الفتات التي تتساقط على موائدهم.

قال مارسيل لزميله:

– ينبغي الاعتراف بأن الفقراء يجدون موارد كثيرة في باريس، وأن الأعمال الخيرية توظف إمكانات طيبة لتخفيف مقاساتهم.

ردَّ باستيان:

– هذا، تحديداً، ما يؤدي إلى وجود حشود من الكسالى. لو قلل الأثرياء من جُودهم، لأرغم هؤلاء على العمل في قطع الأحجار، مثلنا، ولتحملوا البرد والحر في ورش العمل.

– ماذا تريد أن نفعل إزاء ذلك؟ عمل الخير لا يختار أحداً دون أحد: إنه يُطعم الجائعين كلهم.

– ينبغي حقاً أن يكون المرء غائراً في أقسى غايات الجوع لكي يقلل من قدره إلى هذا الحد، فيأتي حاشراً نفسه بين الذاهب والغادي على عتبة دار عجزة، وينتظر على مصطبة حجرية أن يعطوه حساءً اقتصادياً، كأنه واحد من تلك الحيوانات التافهة

Twitter: @ketab_n

التي تنتظر أن يرموا إليها ببقايا الأكل. أنا، شخصياً، لن أتمكن قط من إنزال مستواي إلى تلك المنزلة الواطئة.

– حسناً! تقول ذلك، يا باستيان، لأنك، مثلي، تكسب 5 أو 6 فرنكات يومياً. لكن، ماذا لو حل بك طارئ، إصابة بالغة، مرض مستفحل... ولو وجدت نفسك عاجزاً عن إطعام زوجتك وأبنائك الصغار الثلاثة؟ لكنت قطعاً غيرت لهجتك. ومثلما يقول المثل: «الجوع يُخرج الذئب من الزور». من المؤكد الأكيد أننا لو فكرنا بكافة احتمالات الحوادث الممكن أن تصيبنا، فتقعدنا عن العمل، فلابد أن نفكر في الاقتصاد. أليس كذلك؟ هذا، بالضبط، ما تردده زوجتي. وأعتقد أنها محقة تماماً. في موسم الحصاد، من الحكمة وضع شيء جانباً لأيام القحط، يعني، باختصار» «الفلس الأحمر ينفع في اليوم الأسود»... ومثلما يقول المثل الآخر: «إن أردت ألا تعطش، فاحتفظ بثمرة كمثرى ترويك عند الحاجة».

– آه! مثلك هذا لا يعرف ما يقول. أنا، من جانبي، سأستاء إن لم أعطش، لاسيما عندما أذهب إلى الحانة الريفية. في رأيي، قنينة الشراب التي نفرغها أفضل من تلك التي نضعها جانباً في نية شربها يوماً. لا أحب تأجيل متعة اليوم إلى الغد. وعندما

Twitter: @ketab_n

أمسك باللذة، لا أتركها عنها سوى عندما يفرغ جيبي. أنا في عز الشباب والقوة والمقدرة، ومثابر في العمل. سأدخر لاحقاً. في انتظار ذلك، يعيش المرح!

عندما كان مارسيل وباستيان، في محادثاتهما، يتطرقان إلى ذلك الموضع، كان كل منهما يدافع عن رأيه، الراسخ غير المزعزع. أحدهما، باتفاق مع خيرة النساء، كان يحرص على توفير أقصى ما أتيح له، ولم يخش يوماً شيئاً أكثر من أن تُنزله عوادي الزمن إلى مرتبة المشردين، وترغمه على الاستجداء مثلما يستجدون.

والآخر، الذي لم تكن كبرياؤه أقل من السابق، انغمس في الملذات. ومع أنه كان فظاً وذا شخصية قوية، لم يكن سوى خادم مطيع لزوجته الثرثارة النمامة، لكن المرِحة، التي كان يتباهى بكونه بعلها. كان يخالط معشر السكارى، فينفق آخر ما في جيبه مما كسبه من كده في العمل. قوته الجسدية وسمعته كنحات حجر بارع كانتا تطمئنانه في شأن المستقبل. وإن لم يبق في جيبه شيء في مساء بعض الآحاد، كان يعرف أنه سيعاود العمل في اليوم التالي، فيؤمن لزوجته وأولاده كل ما يحتاجون إليه من متطلبات الحياة. على الرغم من ذلك، كانت ملابس أولاده غير لائقة إلى حد ما. كما لم يُجيدوا القراءة والكتابة. في المقابل، كانت بنات

Twitter: @ketab_n

مارسيل يرتدين ملابس متواضعة لكن أنيقة، من صنع أيديهن. تألقن بنظافتهن، وهندامهن الحسن، وسلوكهن المحتشم. وكن يقدرن على الكتابة وأمهن تُملي عليهن فقرات من أعظم كتب الأخلاق، كن يرتلنها في المساء لأبيهن، فيسلينه عن تعب عمل النهار بتفوقهن وحنانهن.

بطبيعة الحال، كان لابد لذلك التناقض الصارخ أن يفضي إلى خلاف بين ربتي الأسرتين، ونوبات غيرة، ظل الزوجان في منأىً عنها، احتراماً لعهدهما المشترك. لكن، مع مرور الزمن، كان يمكن أن يتصدع الوفاق بينهما لولا أن باستيان، الذي لم يكن دائماً يدفع إيجار بيته في الأوقات المحددة، اضطر إلى تغيير عنوانه، منتقلاً إلى شقة ضئيلة في الطابق الخامس. أما مارسيل وأسرته، فاحتفظوا بمسكنهم الواقع في الطابق الثالث من بيت لائق، جمعوا فيه، بفضل زهدهم، أثاثاً جميلاً وبياضات أسرَّة ومائدة أكثر من كافية، وحتى بعض آنية من فضة. إلى ذلك، لم يمض شهر من دون أن تودع العائلة حوالي 50 فرنكاً إلى كنزها، المتكدس منذ بضع سنوات في صندوق التوفير، تلك المؤسسة المحترمة، التي سنرسم في هذا الكتاب لوحة تصور بإخلاص نفعها.

Twitter: @ketab_n

أدى تباعد مسكني مارسيل وباستيان إلى القضاء نهائياً على أدنى تواصل بين العائلتين، ما أراح زوجة مارسيل، وأرضاها، بما أنها لم تعد موضع حسد زوجة زميله، وتهكمها. كما خلَّص الابتعاد هذه الأخيرة من معاناتها، في قرارة نفسها، عندما كانت تلجأ إلى المقارنة بين وضعها ووضع زوجة مارسيل من حيث النظام المنزلي وبحبوحة العيش.

في تلك الفترة، انتشرت لدى أثرياء باريس عادة الإكثار من البناء، وكأنهم كانوا يتبارون في مسابقة تشييد. هكذا، بفضل ازدهار ورش العمل، كان بإمكان صاحبينا أن يجني كل منهما لغاية 10 فرنكات في يوم واحد. لكن، حلَّت إثرها فترة اضمحلت فيها المقاولات اضمحلالاً شديداً. ولم يعد بإمكان العمال الغنج والتعزز على رؤساء الورش، ففرض النظام الصارم مجدداً. لا أن الحال أفضت أيضاً إلى هبوط الأرباح إلى النصف. بل شهدت باريس عدداً متزايداً من عمال لا أحد يشغّلهم. معظمهم عاد إلى مسقط رأسه في الأرياف، وعمد هناك إلى الفلاحة وأعمال الزرع، التي كانوا عافوها في أمل جني نقود أكثر في البناء.

Twitter: @ketab_n

ما زاد الطين بلة أن باريس شهدت، وقتها، أعتى وأطول شتاء عرفته منذ عهد. ضرب الموسم القاسي الطبقة العاملة، لاسيما أولئك الذين جمَّدت شركاتهم الوظائف بأجور يومية. أمضى مارسيل وباستيان ثلاثة أشهر بأكملها من دون يوم عمل واحد. سُدىً، كانا يذهبان إلى ورش المقاول رب عملهما منذ سنوات. سُدىً، كانا يستعطفانه ملتمسَين عملاً. فهو كان مرغماً على الرضوخ إلى قسوة الموسم، فلم يكن عنده أي ما يقدمه إليهما من عمل. إلى تلك البطالة الملعونة، أضيف تزايد الاحتياجات بسبب غلاء الحطب والزيادة الرهيبة في أسعار السلع والغلال.

آنذاك، كَم عانى باستيان وزوجته وأولادهما الثلاثة! واجهوا الحرمان الموجع. تخلَّوا عن العشاء في حي «لا ڤيلت»، والرقص في مقاهي «غران مارونييه». حُرم الأولاد من لعبة الأرجوحة، وباستيان من لعبة البلياردو. اعتكفوا في شقتهم الحزينة، التي، يوماً بعد يوماً، بدأت تصبح عارية جراء بيع الأثاث، تباعاً، لشراء الخبز. كان الأب والأم وأبناؤهما الثلاثة يرتعدون برداً أمام كومة حطب صغيرة، لا تحمي نارها الضئيلة من برد. تردَّت الحال سريعاً، فباتت الأسرة ضحية البؤس المدقع.

Twitter: @ketab_n

ندم باستيان وزوجته - إنما، هيهات، بعد فوات الأوان - على التبذير الماضي، في الموسم الجميل. وجعل باستيان يؤنب امرأته قائلاً إنه السبب في مصائبهم، بينما راحت هذه تصرخ في وجهه أن إدمانه الشرب وتعاطيه اللعب هما السبب في إفلاس العائلة. وأثناء تلك الشجارات، التي غالباً ما رافقها عنف وتهديد، كان الأولاد الثلاثة المساكين، وهم يختضون برداً ويتضورون جوعاً، يعولون من أجل كسرة خبز لم يكن والداهم قادرَين على تأمينها لهم.

كانت الأوضاع مختلفة تماماً في بيت مارسيل، حيث كانت مدفأة جيدة تسخن المنأى الهادئ وتُنسي ساكنيه شدة الموسم. من حولها، كانت البنات الثلاث يؤدين أعمال الإبرة والخيط، بينما كانت أمهن تشرف على طهو سليقة تتجدد مكوناتها يومياً من لحوم وخضار طازجة، فتسر العائلة بأسرها. كان في البيت ما يحتاج إليه من أغراض لتمشية الأمور الحياتية اليومية. وكان الجميع يرتدي ملابس سميكة، تقي من البرد. وبفضل توفير الماضي، كان بالإمكان شراء حطب، من وقت لآخر، وشرب قهوة بالحليب في كل صباح، بل وحتى فتح قنينة مشروب لرب العائلة أحياناً.

Twitter: @ketab_n

مع ذلك، تخلى مارسيل عن كأس «ماء الحياة» الصغيرة التي كان معتاداً عليها في أيام العز، عندما كانت مقاولات الإنشاء رائجة. تقبَّل ذلك الحرمان برحابة صدر. وكان يقول، مازحاً: «ما من داعٍ لتزييت عجلات عربة تظل عاطلة في المخزن». بعبارة أخرى، عمَّت البركة والفرحة في ذلك البيت الهادئ، على الرغم من التقتير. ولم يكن ثمة همٌّ آخر في خاطر مارسيل وزوجته سوى همٍّ اضطرارهما إلى قضم الكنز الصغير المودع في صندوق التوفير، الذي كانا فرحا بتكديسه طوال سنوات. لكنهما وعدا بإعادته إلى ما كان عليه، بل وزيادة، حالما يُستأنف العمل في مشاريع الإنشاء.

شكل طول الشتاء مصدر عذاب للعديد، وحض المؤسسات الخيرية على مضاعفة عملها وعطائها. ومن بين المحسنين في باريس، أشير إلى تاجر مجوهرات سابق، لم يضاه جاهه وثراءه سوى إحسانه ومعروفه. في كل يوم مع ساعة الظهر، مختبئاً في جبته، وآمراً مساعديه، كان يوزع 400 حساء اقتصادي، لكن مغذٍّ، على رصيف «لا غريف»، ويعطي قطعة من 20 فلساً لكل أم معها طفل. استقطب المشهد العجيب، والمؤثر، عدداً كبيراً من الناس. وجعل كثيرون، في المدينة برمتها، يتحدثون

Twitter: @ketab_n

عن الموضوع. كان بعضهم يأتي بدافع البؤس، وبعضهم الآخر إعجاباً وتقديراً لعمل الإنسانية الجميل ذلك. والجميع كان يتلو عبارات الامتنان.

أزمع مارسيل وزوجته، كالعديد غيرهما، التمتع بمنظر الإحسان الرائع ذاك. فذهبا عند الظهيرة إلى رصيف «غريف»، حيث وجدا حشداً كبيراً. لاحظا أولاً التلهف المقطع للقلب الذي اتسمَّت به طريقة المشردين العديدين في مدِّ أيديهم للحصول على أول غذاء تلامسه شفاههم الجَائعة منذ 24 ساعة. ثم أمعن مارسيل النظر في طوابير المشردين الطويلة، كل منهم واضعاً آنية الفخار على ذراعه اليسرى ومتناولاً محتواها بيده اليمنى. عرفا، هو وزوجته، العديد من جيرانهما العمال، وقد أتوا لتلقي تلك الصدقة المُذلة. لكن، كم كانت دهشتهما كبيرة حين رأيا باستيان وزوجته جالسين على الرصيف، يسدان رمقهما بحساء المعروف. انطلقت من مارسيل، رغماً عنه، صرخة اندهاش وألم، أتت إلى مسمعي زميله باستيان. احمرَّ هذا خجلاً، وخفض ناظريه، وظل محطماً. انتبهت زوجته من جانبها إلى المرأة التي طالما انتقدت من قبل حرصها على الاقتصاد، وطالما سمعها الجيران تتسلى بالتهكم منها.

Twitter: @ketab_n

اكفهر وجه زوجة باستيان ندماً وارتباكاً. أرادت الهرب، والاختفاء بين الحشد. لكن زوجة مارسيل أوقفتها، وقالت لها بحنان وعطف:

– لماذا تحمرِّين، يا جارتي؟ ألستِ أماً كباقي الأمهات؟ لماذا لم تستنجدي بأصدقائك القدامى؟

طاولت تلك الكلمات قلب المذنبة، فأجهشت بالبكاء من دون أن تنبس ببنت شفة. في تلك الأثناء، احتضن مارسيل باستيان بذراعيه، واصطحبه مع أبنائه الثلاثة الصغار إلى مكان أبعد. قال، من دون توجيه أي عتاب أو لوم، وبصوت أثر فيه الانفعال:

– يا صديقي، يا زميلي العزيز... هكذا صرت! تعال إلى بيتي. سنتقاسم ما أملك. ما يزال عندي القليل. ستسدد إليَّ بعدما نستعيد العمل في الورش، أو عندما تشاء، أو ربما أبداً. لكن خلصني من عذاب أن أراك تستجدي. زوجتي على حق: لماذا لم تستنجدا بأصدقائكما القدامى؟

اجتمع شمل العائلتين في بيت مارسيل، حيث تمَّ أداء واجبات الضيافة بفرح وحبور، باعتراف بالجميل من المدعوين، وتعززت

Twitter: @ketab_n

أواصر أقوى صداقة. ثم عادت الأيام الهنيئة بسرعة، وأقيمت ورش البناء مجدداً. الدَّين الذي كان في ذمة باستيان جعله يضاعف الجهد والمثابرة والمواظبة لكي يسدده. ولم يقبل مارسيل بأي فوائد سوى مصافحة حارة.

أما زوجتا نحاتَي الصخور، فلم تعد تبدو عليهما مظاهر الاختلاف التام في الآراء ونمط العيش. زوجة باستيان، المنشغلة تماماً برعاية بيتها وتربية أبنائها، أقرَّت بنفع الاقتصاد، وعرفت قدْره، بما أنه، بفضل ما يضمنه من مأمن ضد الحاجة، يضمن أيضاً لذة التمكن من إنجاد ذوي القربى، وهي لذة لا تضاهيها أخرى. حتى باستيان نفسه، على الرغم من شدة ولعه بمتع المقاهي، اعترف بأن ثمة متعاً أخرى أضمن وأحق. فأصبح مقتصداً بقدر ما كان منفقاً من قبل، وهادئاً رقيقاً بقدر ما كان فظاً غضوباً. في أيام الآحاد، بات يصطحب زوجته وأبناءه إلى غابة «فانسين»، مع أسرة مارسيل. في تلك المناسبات، كان يقول له:

– لا أريد تذوق طعم الحساء الشعبي أبداً بعد الآن.

Twitter: @ketab_n

مركب عاملات الغسيل

من بين نساء باريس ممَّن يمارسن مهناً مرهقة، نلاحظ أولئك الغسالات بالجُملة اللائي يشغلن وقت نهارهن كله على المركب المتوقف على ضفاف نهر السين، منهمكات في ضرب البياضات والملابس والغسيل، وتفريشها وشطفها. نراهن دوماً حانيات الظهر بسبب ثقل ما يحملن، ينزلن سلالم شبه عمودية، ويصعدنها، متحديات تقلبات المواسم وسوء الطقس، ومتحملات الرائحة النتنة المنبعثة من نهر تُرمى فيه أقذار مليون نسمة، وفضلاتهم، ومعرضات أنفسهن باستمرار إلى الرطوبة الدائمة، التي تخترق ملابسهن فتخدر أطرافهن. على الرغم من ذلك كله، يحافظن على ذلك المرح الفرنسي المميز، الذي يردد أهازيجه من دون انقطاع. يَجمعن، في آن، لذة الحياة وآلامها. ويشكلن، في قلب باريس، قوماً منفرداً، له عاداته وطقوسه وأخلاقه، يتسم بروح التعاون والتعاضد، ما يُدهش الفكر ويثير العاطفة ويفرض الاحترام.

Twitter: @ketab_n

يبلغ الأجر اليومي لكل واحدة من أولئك النساء الكادحات 50 فلساً، عليها أن تجهز منها نفسها بالمعفجة، أو المخباط، لضرب الملابس والشراشف. وعليها أيضاً، من درّ ذلك الأجر البسيط، شراء الصدرية الجلدية، الضرورية لمزاولة العمل. ومعظمهن ربات بيوت. وعلى الرغم من تدني الأجر، يبادرن إلى استقطاع 5 فلوس منه، ويضعنها في ما يشبه صندوق توفير مشتركاً، الهدف منه مواجهة ما قد يطرأ من عوادٍ لم يُحسب لها حساب، وكفاء أي منهن قد تبتلي بالبؤس مذلة الاستعطاء من أي مصدر آخر.

درجن أيضاً على تقليد انتخاب عميدة، يلقبنها «الملكة»، مرة في كل سنة، في منتصف الصوم الكبير. تضطلع الملكة بمهمات تنظيم التسلية والفرح، وترؤس أي مناظرات قد تجرى في الهواء الطلق، في مملكتها الصغيرة. فهناك، تشكل أدنى دناءة، أدنى زلة، أدنى تقصير عن الورع التام والعفة الكاملة، دافعاً قوياً لطرد المذنبة. هذا القانون الصارم والمحافظ المعتمد لدى سلك عاملات الغسيل ضروري، ويتقيدن به من دون الإخلال قيد شعرة. وتزداد أهميته عندما نعلم أن البياضات والألبسة وقطع الغسيل التي تولى إليهن للتنظيف غالباً ما تكون

Twitter: @ketab_n

ذات ثمن عال. ومن دون رقابة صارمة، يمكن أن تختلط فيما بينها. هكذا، قد يجرُّ أي تقاعس أو إهمال إلى فوضى ولغط وارتباك، واختلاط القطع.

لا شيء أكثر إثارة للفضول، وفي الوقت نفسه التعاطف، من منظر مئة امرأة، أو زهاء ذلك، تتلامس مرافقهن وهن يعملن معاً، منكبات على تنظيف مئات القطع. لا يرتكبن غلطة قط، ولا أي سرقة. ذلك المركب الكبير، مركبهن، الذي يوازي بارجة حربية طولاً، يبدو وكأنه عنبار عملاق، قائم على الثقة ومضمون بصفات الشرف.

لكن تلك النسوة، الكادحات الدءوبات، يعانين أكثر ما يعانين في موسم الشتاء. آنذاك، يثير منظرهن الإشفاق حقاً. فالأقمشة، المبللة في ماء النهر المثلج، تجمد أيديهن حتى تشل حركتها وتوقف دوران الدم فيها. لذا، تراهن يغمسن أيديهن في إناء ماء ساخن، موضوع على فحم مشتعل، لكي يستعدن الحرارة الطبيعية من وقت لآخر، وينشطن أطرافهن المخدرة. آه لو عمد الثري الباريسي، شتاءاً، إلى تفقد مواضع الوجع المتواضعة تلك، وأمكنة الصبر والأناة وأمثلة الشجاعة! آه لو تصور كم مؤلم هو تنظيف قميص وحسب، يقدمه خادمه إلى هذه الغسالة أو تلك،

Twitter: @ketab_n

لكي تدعكه... لفهم آنذاك أن من الحيف خفض فلس واحد من راتب عاملات الغسيل الضئيل!

في نهاية رصيف «لا سيتيه»، في باريس، ثمة مركب ضخم، ترتاده نسوة كثيرات من سكان ذلك الحي، الشعبي والمكتظ جداً. اشتهرن بقدرتهن على إضفاء ألق كبير وبياض ناصع على الغسيل، من دون التأثير في جودته ونوعيته. إنها، إلى حد ما، مدرسة تأهيل عاملات الغسيل في العاصمة. من بين تلك العاملات، تألقت بلانش ريمون منذ بضع سنوات. وهي فتاة في الثالثة والعشرين من العمر، ذات وجه بشوش متفتح، وبراعة يُشهد لها فيها، وقوة بدنية غير اعتيادية. كانت فقدت أمها تواً، فأصبحت المعيل الوحيد لأبيها الضرير، الذي كان في ما مضى عاملاً في ميناء القرميد، على ضفاف السين. لذا، ضاعفت بلانش جهدها وكدَّها لكي تقدر على سد احتياجات البيت.

أما أبوها، السيد ريمون، فعلى الرغم من فقدانه البصر، إلا أنه كان يمضي النهار في حياكة شباك لصيادي أسماك الغجوم. وبفضل مثابرته، كان قادراً على كسب 20 فلساً في اليوم، ما أسهم في تأمين شيء من متطلبات المنزل، وبشكل خاص في تخليصه من معاناة التفكير في أن يكون عالة على ابنته بشكل

Twitter: @ketab_n

تام. كانت هذه الأخيرة تحضر له الفطور، في منزلهما الواقع على شارع «لا كولومب»، في العنوان المقابل بالضبط للسلالم المفضية إلى مركب عاملات الغسيل، ثم تذهب إلى العمل في حدود السابعة صباحاً، فتعود عند الظهيرة لتحضير غداء الضرير المسكين، ثم تعاود العمل حتى نهاية النهار.

بعد العودة مساء إلى المنزل المتواضع، الفائحة منه رائحة النظافة والترتيب، كانت بلانش تصطحب أباها من ذراعه، وتفسحه لمدة ساعة على رصيف «لا سيتيه»، مرددة عليه ببهجة ومرح ما قيل من ثرثرة ذلك النهار على مركب الغسيل، فيضحك الأب الضرير معها. وبعد إبداء آرائه، النابعة من خبرة طويلة، كان يعود إلى البيت، فيتناول وجبة خفيفة، الأخيرة لذلك اليوم، ويخلد إلى نوم هانئ، وابنته الرائعة تسهر عليه قربه، وترعاه بعطفها وحنانها.

مضت ثلاث سنوات على وفاة زوجة السيد ريمون، نمّت بلانش خلالها عن سرور كبير في تقديم أرق مظاهر العناية لوالدها والسعي إلى جعله ينسى، قدر الإمكان، فقدان رفيقة عمره، التي لا تُعوَّض. كان حب الابنة تجاه أبيها من القوة بحيث أبعد عن قلبها أي ميل لمشاعر أخرى. جزافاً، سعى حرفيون شباب من

Twitter: @ketab_n

الحي إلى نيل إعجابها. فبرُّها بأبيها، وإحسانها له، مضافاً إليهما مشاغلها في العمل والحياة، المتجددة والمتزايدة، لم تتح لها الوقت للإنصات إلى أولئك الشبان.

على الرغم من ذلك، أثار انتباهها المدعو ڤيكتور، الذي كان يعمل كمجهز نسيج في مصنع لإنتاج الأقمشة والأصواف من نوعية «مرينوس» الفاخرة. كان ذا قامة فارعة ووجه يُعبر، في آن، عن وقار الروح وغاية الطيبة. لم يوجه يوماً كلاماً نابياً إلى عاملة الغسيل اليافعة، إنما سلام ملؤه التهذيب والاحترام. لم يُنادها يوماً بغير عبارة «آنسة بلانش»، ولم يغفل يوماً الاستفسار عن أخبار أبيها. كان هذا سؤالاً يستحيل على بلانش ألا تردَّ عليه، وباهتمام بالغ، بل وعرفان بالجميل.

حالما كان ڤيكتور يلحظ عاملة الغسيل صاعدة السلالم، محملةً بثقل لا يطاق من ملابس وشراشف مبللة، كان يهرع خلفها، وبذراع قوية، يخفف عن الشابة حملها الثقيل، ثم يرافقها إلى عتبة ورشة التنظيف التي كانت تعمل لها. وهناك، كان يودعها بالقول، بتعبير جميل:

– إلى اللقاء يا بلانش الطيبة، إلى اللقاء.

Twitter: @ketab_n

أما عاملة الغسيل، المعتادة مع أبيها على كشف أسرار المشاعر، فلم يكن بوسعها أن تظل غير مكترثة بدلائل التعلق الحق، المكررة مراراً، والتفاني الصادق من جانب الشاب. هكذا، أفهمت ڤيكتور أنه، من بين جميع مريديها، الوحيد الذي قد يثير انتباهها أو يعجبها. هذا الاعتراف الضمني شجعه على المضي قدماً، والإكثار من مبادرات التبجيل الرقيقة، حتى أثار نقاشاً شكل بالنسبة إليه داعي فخر من جهة، وسبباً لليأس من جهة أخرى.

أسرت إليه بلانش بكل سذاجة:

- لن أخفي عليك، يا ڤيكتور، أمراً: لا يمكن لشيء أن يجعلني أتخلى عن أبي. فهو مسن وفاقد للبصر، وليس عنده غيري في هذه الدنيا لتخفيف معاناته من هذا المصير الحزين.

أجاب ڤيكتور:

- إذن، سنكون اثنين لكي ننجز المهمة. في طفولتي، فقدتُ مؤلف حياتي. «أبي»...، تلك الكلمة الجميلة الرقيقة اللفظ، لم تكد تخرج من فمي قط. إسهامي في إسعاد أبيك هو بالنسبة إليّ سعادة أخرى، سأكون مديناً لك بها. أجل، يا بلانش، بقبولي زوجاً، ستهدين إلى السيد العجوز ريمون ابناً باراً وطيّعاً.

Twitter: @ketab_n

– ولنفسي، سأكون أهديت سيداً. قريباً، ستتمُّ فرحة كوني زوجة بفرحة أن أصبح أماً. آنذاك، لن يحتل العجوز البصير سوى المرتبة الثالثة في قلبي. وبذلك، لن يحصل سوى على قليل من العطف الذي يحظى به اليوم. سينتبه إلى ذلك، فينتابه الغم، فيتشكى، وتزداد تعاسته أكثر من أي وقت مضى. لا وألف لا. طالما هو على قيد الحياة، عليَّ العزوف عن الزواج. فلا تحاول إغرائي بأفكار عن سعادة تبتسم إليَّ بقدر ما تبتسم إليك. دع بلانش تنفذ المهمة التي عهدها الله إليها.

ما حزَّ أكثر في قلب ڤيكتور النبيل، وهزَّه نوعاً ما في قراراته، كان ذيوع تعلقه بين معشر عاملات الغسيل. لم تفهم هؤلاء كيف قدرت بلانش على مقاومة إلحاح الشاب النزيه، الملائم لها حد الكمال. كل منهن باتت محاميته أمام بلانش، التي ما عادت تلتقيهن من دون أن يُرافعن لمصلحة قضية ڤيكتور. وبعدما أحيطت من كل جانب – وأيضاً، الحق يقال، استجابةً منها، رغماً عنها، إلى رغبتها الحقيقية الدفينة – أعلنت الفتاة أنها، لو سمح لها القدر بامتلاك ورشة غسيل، في تلك الحال سيتوافر لها وقت كافٍ للانصراف إلى رعاية أبيها بشكل دائم، بالتالي سترضى بالاقتران بڤيكتور.

Twitter: @ketab_n

لكن فتح مصلحة كتلك كان يكلف، حينذاك، 5 إلى 6 آلاف فرنك. فأنّى لها توفير هكذا مبلغ من راتبها الضئيل؟ أحيط ڤيكتور علماً بوعد الشابة، فتوقع أن بلوغ هدف سعادته لن يتحقق البتة. فهو كان يجني من عمله في المصنع 5 فرنكات يومياً، وفَّر منها بعض نقود. وكان يحظى بتقدير التاجر الذي يعمل عنده منذ 10 سنوات. فكر أنه، ربما، سيتفضل بتسليفه جزءاً من المبلغ. إلى ذلك، كانت عاملات الغسيل يضعن، كل منهن، 5 فلوس يومياً في الصندوق المشترك، ما مجموعه زهاء 9 آلاف فرنك سنوياً. عرضن جميعهن تأمين تكاليف العرس.

لكن بلانش، رغم ما انتابها من سرور لتلك الالتفاتة الكريمة، أصرت على موقفها، مجددة وعدها بالزواج من ڤيكتور حالما تتيح لهما مدخراتهما شراء ورشة تنظيف. هي أيضاً، قيل إنها كانت توفر قليلاً من موردها، معينة سراً طالب يدها على الحصول على المتجر المنشود. إلا أنها سرعان ما واجهت محناً أخرى، كادت تقضي على هِمَّتها. فالسيد ريمون، في سن 66 عاماً، العامل السابق في ميناء القرميد، الذي طالما صمد أمام قسوة الشتاء ورطوبة الجرف، أصيب بروماتيزم مصحوب بالنقرس، أحاله كسيحاً، ومشلول اليدين. لم يعد ثمة شيء يُسلِّيه. صار

Twitter: @ketab_n

يظن أن الحياة الدنيا كفت عن الوجود بالنسبة إليه. إلى حد ما، أصبح مجرد كائن آلي، مسيَّر من جانب من يحيطون به، لا يقوى على الحركة من دونهم. توجب غسله، من الرأس إلى القدمين، وإطعامه لقمة فلقمة، كطفل ضعيف.

بات لزاماً إلهاء السيد ريمون، وتسليته، لكي ينسى الموت المبكر المحدق به. توجب قص حكايات مفرحة عليه، وإغداق كلام السلوان، وسرد ما حصل خلال النهار، يومياً، والتحدث عن أخبار الجيش، وقراءة نصوص جميلة. كانت بلانش بارعة في تلك الأمور، ومبتكرة، وتنمُّ عن تفان مثير للإعجاب. أما ريمون، فكان يظل في السرير لغاية التاسعة صباحاً، حيث كانت تعود ابنته من المركب لكي تساعده على النهوض، والوصول إلى كرسيه القديم، ثم تقديم فطوره البسيط. هي أيضاً، من جانبها، كانت تأكل قطعة خبز بسيطة على عجالة، قبل العودة بسرعة إلى غسيلها. حالما كانت الساعة تدق الثانية بعد الظهر، كانت تسارع إلى صعود درجات السلم الطويل المفضي إلى الرصيف، فتصل لاهثة إلى البيت، وتحضر غداء أبيها، المؤلَّف عادة من حساء ممتاز، تطهوه على قِدر تركنها على نار هادئة، كانت إحدى الجارات الطيبات تأتي لمراقبتها من وقت لآخر. بعد الوجبة

Twitter: @ketab_n

اللذيذة، التي كانت تفرح العجوز المسكين، كانت بلانش تعود إلى الجرف لإنهاء نهار عملها.

هكذا، بعد جني الـ50 فلساً اليومية، كانت تعود إلى أبيها المعاق المسكين، فتجد الكلمات والوقت لتسليته إلى أن يغلبه النعاس، فيسد جفنيه المتعبَين، المحرومَين إلى الأبد من نور السماء.

في أحد الأيام، منتهزة استراحتها الصباحية، عادت بلانش كعادتها إلى البيت. فوجدت أباها على كرسيه، وسريرَه مرتباً، وغرفته على أفضل وجه. فسألته عن سر من أحسن إليه ففاجأها مفاجأة سارة على ذلك النحو. أجاب مبتسماً أن ذلك سره، ولن يفشيه. علمت بسرعة أن المحسن لم يكن إلا ڤيكتور، وأن الأخير اتفق مع رئيس ورشته على أخذ استراحته الصباحية في الثامنة بدلاً من التاسعة، فأصبح يأتي بنفسه لإنهاض العجوز الأعمى وإغداقه بعناية جديرة بخيرة الأبناء الحقيقيين. أثرت المبادرة في بلانش، فعززت ميولها الدفينة، التي كانت تقاومها منذ عهد.

في يوم آخر، أيضاً بعد عودتها إلى البيت أثناء الفرصة الصباحية، وجدت أباها ليس فقط خارج سريره، إنما أيضاً غاطساً في حمام من صابون «باريج» الشافي، كان ڤيكتور حضره له بناء

Twitter: @ketab_n

على نصيحة طبيب ماهر، أحضره لكي يفحص المريض. عندما رأت بلانش ذلك المنظر، لم تستطع مقاومة سيل من الدموع. فأخذت برفق إحدى يدي خطيبها، وعصرتها بين يديها بقوة، ثم قالت وهي مشدوهة:

– لن أقدر قط على رد جميلك.

– ما عليك إلا قول كلمة واحدة، يا بلانش، وستردين الجميل. كلمة وحسب.

احمرَّت عاملة الغسيل، وخفضت نظرها نحو الأرض، آملة أن تلوذ بالصمت هرباً من المحنة الجديدة التي واجهتها. في تلك اللحظة، تدخل ريمون العجوز بنفسه، فضمَّ صوته إلى صوت ڤيكتور، مُعبراً لابنته عن رغبته بأن تقترن بشاب في مثل خلقه. آه كم كانت موجعة تلك المواجهة المضاعفة بالنسبة إلى بلانش الرقيقة! كيف لها الصمود أمام أبيها وطالب يدها معاً؟ كيف لها التمرد على السلطة الأبوية ومقاومة الانصياع، في آن، إلى السلطة العاطفية، التي لا تقل سطوة وسلطاناً، لاسيما وأنها قائمة على مشاعر اعتراف صادق بالجميل؟ مرة أخرى، تغلَّب الإخلاص لحب الأب. استجمعت بلانش قواها كلها، وعبأت طاقة روحها الطاهرة كلها، فصرحت:

Twitter: @ketab_n

– أملُ أن أسعد بالاقتران بأشرف رجل عرفته في حياتي لن يثنيني عن أداء الواجب الذي تفرضه الطبيعة. كلما زادت إعاقة أبي، احتاج أكثر إلى ابنته لكي تسنده. وما هو في نظري سرور وسعادة، قد تراه أخريات قيداً وسُخرة. باختصار: قراري غير قابل للاستئناف.

تطلب الأمر إذن الرضوخ إلى إرادة بلانش. وبما أنه كان من الأفضل عدم إيلاء ڤيكتور حقوقاً سيكون من العسير مجابهتها، سابقته بلانش في التفاني للعجوز المقعد، وسددت إليه تكاليف الطبيب والأدويـة، قاضمة بذلك مدخراتها، القليلة أصلاً، ومؤجِّلة في الوقت نفسه موعد الاقتران المنشود. لم يعد ڤيكتور يسهم في شيء آخر غير وضع المريض في حمامه من صابون «باريج». وبفضل فاعلية تلك الوسيلة، بدأت أطراف العجوز تستعيد نشاطها يوماً إثر يوم. لكن الرعاية الكبيرة، ومتعددة الأوجه، التي تطلبتها حالته، لم تسمح لبلانش بأن تعمل النهار كله على المركب. فحصلت من مراقِبة الورشة أن تتيح لها العمل بالقطعة، لقاء كذا أجر معين لكل نوع من الملابس والبياضات، ما يؤمن لها أجوراً يضاهي مجموعها تقريباً ما تتقاضاه كراتب ثابت مقطوع. وحصلت حالات تحسَّن فيها وضع ريمون العجوز الصحي قليلاً، ما أتاح لابنته تخصيص وقت أكبر للعمل. فبات لا يندر أن تجني لغاية ثلاثة فرنكات في اليوم.

Twitter: @ketab_n

هكذا، حالما كان مركب الغسيل يفتح صباحاً، كانت بلانش أولى الحاضرات، حاملة على ظهرها سلة الملابس المبللة اللازم تسليمها. لم يضاه إخلاصها في العمل سوى براعتها في تنفيذه. وكانت زميلاتها يمتنعن عن إلهائها، علماً منهن بثمن وقتها وبهدفها من العمل وجني أجره. تقديرهن العميق لها، واهتمامهن الجميل بها، أتيا بعمل المعروف الإنساني النبيل، والعبقري، الذي يسرني هنا أن أقصّ حكايته. إنه، في حد ذاته، كاف للبرهنة على نبل التكاتف بين تلك النساء الرائعات، وإعطاء فكرة عن إنسانيتهن اللامتناهية.

في صباح أحد الأيام، على غير العادة، وصلت بلانش متأخرة إلى المركب، بعدما سهرت على راحة أبيها، الذي عانى ألماً طوال الليل. لذا، ضاعفت جهدها لكي تعوض عن التأخر. وعندما دقت ساعة الاستراحة، خلعت صدريتها الجلدية، وائتمنت جارتيها في العمل على ما تبقى لها من ملابس وشراشف عليها إنهاء تنظيفها. ثم غادرت مسرعة إلى البيت لكي تحضر وجبة أبيها، كالمعتاد. وبعدما عادت إلى المركب، وجدت مندهشة أن الغسيل الذي كانت تركته غير مكتمل قد انتهى أسرع من المتوقع. ومع أنها أمضت وقتاً طويلاً في رعاية أبيها، تجاوز ريع يومها ثلاثة فرنكات. في اليوم التالي، حصل تغيب مماثل،

Twitter: @ketab_n

مشفوع بإنجاز عمل مماثل. فلم يعد عندها أدنى شك: امتدت يد عون رءوف لكي تسندها بينما كانت، من جانبها، تؤدي أقدس الواجبات، واجب الإحسان بالوالدين.

في اليوم الثالث، اختبأت وراء الجدار الصغير المصفوف على طرف رصيف «لا سيتيه»، وألقت نظرة فضولية على مكانها، الذي تركته لتوها شاغراً. فرأت إحدى زميلاتها تهرع إليه، وتبدأ بإنجاز العمل بدلاً منها. هذه الرفيقة، بالاتفاق مع الأخريات جميعهن، ضحت بساعة استراحتها لكي تعين بلانش، فتسهم بتلك الطريقة في واجب البر بالوالدين. إذ اتفقن على أن يقمن بذلك الإحسان تباعاً، كل بدورها. ولم تشأ واحدة منهن تفويت حق برهنة مشاعر تقديرها وودها تجاه تلك الشابة البارة. تأثرت بلانش أيما تأثر لتلك المبادرة المشرفة، وذلك التعبير عن الصداقة الوفية. لكنها تظاهرت بعدم معرفة شيء.

بفضل تلك الجمعية الخيِّرة، ارتفعت موارد بلانش، فباتت قادرة على تأمين حمامات صابون «باريج» لأبيها، وكافة ما يحتاج إليه من علاج لشفائه. وفعلاً، سرعان ما شفي تماماً. يا له من نصر ويا لها من فرحة بالنسبة إلى عاملة الغسيل! والبهجة تغمرها، أخذته نحو رفيقاتها، واعترفت له أمامهن بأنها على علم

Twitter: @ketab_n

بما بذلنه من أجلهما، ووصفتهن بأروع المحسنات الكريمات. نوعاً ما، عاد العجوز شاباً، فقبّل هذه على خدّيها، وصافح تلك بحرارة. هو وبلانش تلقيا التهاني والتبريكات بشفائه من جانب الحاضرين كافة، الذين اندسَّ ڤيكتور بينهم. اقترب من بلانش، وهمس لها بصوت خفيض:

– إذن، تُسعدين الجميع وأنا الوحيد الذي تتسببين في شقائه!

أرادت بلانش أن تجيب، لكن ارتباكها منعها. ولإخفاء ما يختلج في صدرها، هرعت فالتجأت إلى كتفي أبيها.

اقترب منتصف شهر الصيام، فبادرت عاملات الغسيل، تمسكاً بالتقليد، إلى الاهتمام بتدابير انتخاب «ملكتهن» الجديدة، التي كانت على وشك أن تمارس، لمدة عام، سلطة قدِّر لها أن تكون موضع احترام زميلاتها، لكونها نابعة من اقتراعهن. اخترن بلانش بالإجماع، مشددات على أنها أكثر من حظي بتقدير زميلاتها العاملات وإعجابهن. ثم توِّجت في حفل مهيب، على مركب العمل نفسه، الذي تمَّ رفع أشرعته البحرية وتزيينه بالزهور. وصلت عاملة الغسيل الشابة برفقة أبيها، الذي، منذ عهد، لم تعترِه فرحة كفرحته في تلك المناسبة. حال وصولهما،

Twitter: @ketab_n

عُزف لحن هادئ ناعم. وأجمعت الأصوات على أن يُعهد إلى ريمون العجوز شرف وضع التاج على رأس ابنته. ارتعدت يداه الأبويتان، لكنْ سروراً وسعادةً لا وهناً أو ضعفاً. أقرَّ بأنه كان أجمل يوم في حياته. وتضرع إلى السماء ملتمساً الهناء لابنته، سنده الرائع في شيخوخته، ثم قبَّلها على خدها بحنان أبوي، وبكى ألذَّ بكاء. بعد ذلك، تقدم كل من الحاضرين والحاضرات، تباعاً، لتكريم الملكة الجديدة. جاء دور ڤيكتور، الذي اقترب مبدياً الاحترام والتبجيل الجديرين بملكة، وهمس مجدداً:

– إذن أنا الوحيد الذي تتسببين في شقائه!

تلك الكلمات، التي تفوه بها ڤيكتور بقوة تعبير متميزة، طرقت مسامع عاملات أخريات، لاسيما مسؤولة ورشة بلانش. فتعهدت هذه علناً إلى بلانش بالتنازل لها عن متجرها حالما تجمع 5 آلاف فرنك.

صرخ ڤيكتور:

– في حوزتي ربع المبلغ. وأعد باقتراض الباقي من الصناعي الذي أعمل عنده.

علقت بلانش بالقول:

Twitter: @ketab_n

– لكنه دين ثقيل، أكبر من طاقتنا. كيف سيتسنى لنا تسديد مبلغ كهذا؟

– من قيمة «جائزة الفضيلة» التي ستقدمها إليكِ الأكاديمية الفرنسية.

أتى ذلك الكلام على شفتي رجل مسن، كان اندس بين المحتفلين، يفرض مظهره الوقور فائق الاحترام. سارع الحاضرون إلى سؤاله عن معنى ما أعلنه. فأوضح للحشد الذي تجمع حوله أن الأكاديمية الفرنسية، بمبادرة من الحقوقي الشهير جان أنطوان دو مونتيون، قررت تخصيص جائزة الفضيلة السنوية، بمبلغ 6 آلاف فرنك، إلى مَن يقوم بأجمل عمل إنساني من بين شعب باريس البسيط. أضاف أنه عمدة الدائرة الإدارية الثامنة من العاصمة، وأنه مكلف من جانب المؤسسة العريقة، الأكاديمية الفرنسية، التي يتشرف بالانتماء إليها، بتبليغ الفائزة رسمياً باستحقاقها ذلك التكريم الرفيع. كما كشف أن عاملات غسيل المدينة، بالإجماع، صورن بلانش ريمون قدوة ونموذجاً للبر بالوالدين، ما حدا بأعضاء الأكاديمية الموقرين إلى انتخابها للفوز بالجائزة.

Twitter: @ketab_n

أحدث الإعلان، على ظهر المركب، المفعول الذي كان يتوخاه حامل البشرى. تعالت صرخات الفرح من الأفواه كلها. وعانقت عاملات الغسيل الأكاديمي المبجل. كما أضفين صبغة الشرعية على خيار المؤسسة زميلتَهن المحبوبة، التي قلدنها طوق ورود، وذلك عبر مظاهر الفرح والبهجة التي أبدينها، وعبارات الثناء وتعبيرات الشكر والامتنان التي أكثرن منها. أما المعنية، بلانش، فظلت، كعهدها، بسيطة ومتواضعة، لا تكاد تصدّق ما تحظى به من تشريف وإكرام.

تقدمت بلانش، يسندها أبوها من جانب وڤيكتور من الجانب الآخر، لكي يسلمها المندوب الوقور الجائزة التي ستحقق أمانيها، وتثبت لجميع العاملات الحاضرات أن السماء، عاجلاً أم آجلاً، تكافئ الإحسان بالوالدين وتبارك الأولاد المطيعين المتفانين، وأن ذلك السلوك الطبيعي في أصله، والسامي في وحيه، ليس شائعاً أكثر لدى أولاد الذوات، الذين يتألقون أكثر في الصالونات المذهبة، مما هو عليه لدى البسطاء من أبناء الشعب، لاسيما على مركب عاملات الغسيل البسيط.

Twitter: @ketab_n

الأرقام الثلاثة

من بين كافة أنواع الغواية التي غالباً ما تضلل الشعب، ينصبُّ أسوؤها وأنحسها، وربما للأسف أكثرها شيوعاً، على الرغبة العمياء في الإثراء السريع عبر ألعاب البخت والحظ[1]. يبدو أن المرء كلما بخل المصير معه، كبر حلمه بنِعَم المصير، فيعتمد على النصيب، وحسب، وصولاً إليها. آه! مخدوعون هم أولئك الموسرون ممن يعرِّضون وجودهم النزيه للخطر، فيتشبثون بعربة الحظ، التي، تقريباً دائماً، تجرحهم أو تسحقهم. لكن الذنب أكبر من لدن أولئك العمال والحرفيين المتواضعين، غير الجديرين بشفقة أو عطف، ممن يبددون ثمرة عَرَقهم في مضاربات الأرقام المجنونة، والتشكيلات الرقمية الخداعة، التي تحاكي بصيصاً ملعوناً يَضِلُّ المسافر طريقه بسببه، ويُستدرَج إلى هاوية.

والأنكى هو عندما يكون هؤلاء المقامرون العنيدون أرباب عائلات، ودرُّ عمل أيديهم دخل أولادهم، وسندهم الأوحد. عندها، تستشيط الطبيعة غضباً، فتكدس فوق رؤوسهم ما

(1) صحيح أن قانوناً حميداً قد سنَّ لمنع لعبة اليانصيب. لكن، لا تزال ثمة ألعاب قمار عديدة أخرى تغوي أناساً كثيرين. عسى أن يجد مغزى هذه الحكاية تطبيقاً عملياً نافعاً (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

يستأهلونه من أنواع العقاب كافة، ومظاهر الغضب السماوي.

كان بيرنار يعمل خَرَّاطاً في صنعة النحاس، وزوجته خياطة ماهرة. وكانا ينعمان ببحبوحة نزيهة بفضل النظام والعمل والمثابرة. ومن ذلك، نبعت ثقتهما المتبادلة، وتفاهمهما الثمين، وسعادتهما المنزلية، وهي أول كنز لكل أسرة، حتى في طبقات المجتمع العالية. ولد طفلان من ذلك الاقتران الذي لم تشبه شائبة، ولدٌ اسمه پروسپير وبنت اسمها لويز. أرضعتهما أمهما، ورباهما والداهما تربية حسنة، فبات الأخ والأخت يزدادان حُسناً وخلقاً يوماً بعد يوم. ولوحظ بشكل خاص أنهما يكنّان لواحدهما الآخر عاطفة أخوية كبيرة، ولا يستطيع أحدهما الافتراق عن الآخر لحظة من دون المناداة بعودته حالاً. كل ما كان أحدهما يتسلمه من أمه أو أبيه، سواء أقطعة حلوى أم لعبة صغيرة، كان يصبح في الحال ملكاً مشتركاً بين الأخ والأخت. باختصار، كان يضرب فيهما المثل في الحديث عن العطف الأخوي.

جرى كل شيء على ما يرام في كنف تلك الأسرة الطيبة، إحدى أكثر عائلات شارع «فوبور سان مارتان» سعادةً وسؤدداً. عند ذاك، تعرفت ربة البيت إلى جارة تدعى السيدة أوبير، كانت حَرَم مُطرِّي جلود صعب المراس، لا يهتم سوى بعمله. لم تكن تلك

Twitter: @ketab_n

الجارة تكتفي بما يرزق به بعلها. فخيالها الخصب جعلها تطمح إلى الرقي إلى أعلى من منزلتها، التي لم تكن لتؤمن لها سوى رداءة نزيهة في أفضل الأحوال. هكذا، لجأت سراً إلى تجربة حظها في لعبة اليانصيب، لعلها تربح ما يرضي زهوها وغرورها. ربحت مبالغ بسيطة، من وقت لآخر. لكن متطلبات البيت لم تتح لها شراء البطاقات كاملة، بالأرقام التي كانت تتخيل أنها ستربح. لذا، عرضت على زوجة بيرنار أن تتشارك معها، ملوِّحة لها بأمل الفوز، بل الفوز اليقين، والإثراء معاً.

قالت جارة زوجة بيرنار لهذه الأخيرة:

– سنخرج من هذه الطبقة المغمورة، التي لم نولد لكي نكون منها، أنا وأنتِ. ستكونين أكثر ملائمة مع سيدات الحي الراقيات، ممن تخيطين لهن الأثواب. قريباً، الخياطات هن من سيأتين إلى بيتكِ، ويلتمسن أن توليهن شيئاً من وقتك لكي يأخذن مقاساتك، وستتزينين بأحلى حلة تشتهينها.

ردت زوجة بيرنار قائلة:

– من المؤكد أن مهنة الخياطة هذه متعبة، وأحياناً مُذِلَّة. ينبغي أن أكِدَّ كالعبيد لتلك البرجوازيات البدينات اللائي يرُمن الظهور

Twitter: @ketab_n

بمظهر السيدات الراقيات. عليَّ تحمل نزواتهن وأمزجتهن، وتعديل العمل عشرين مرة وفقاً لما يطلبنه ويتطلبنه، وسهر الليالي لإرضاء غنجهن الأبله. إنه شيء لا يطاق.

علَّقت زوجة مُطرِّي الجلود بالقول:

– وما عساي أن أقول من جانبي؟ أنا منهمكة طوال الوقت بإزالة الزيت عن جلود من أنواع شتى، وطيها وغمسها بزيت التنعيم مجدداً، وتحضير غسيل الرماد ومحلول البوتاسيوم، وإشعال مرجل تنور التنشيف، وتنشق الروائح النتنة المنبعثة من مواد الدباغة الدهنية، التي تعلق بملابسي وتسوِّد يديَّ ووجهي... يا لها من حياة مقرفة! هذا ما يدعوني إلى توظيف مدخراتي في تجربة البخت. شيء ما، لا أعرفه، يقول لي: «ستُفلحين، ستربحين».

كانت مثل تلك المحادثات بين الجارتين، في العادة، تُشفع بشراكة تزج فيها كل منهما ما تبقى في حوزتها من نقود، فتشتريان به حالاً أرقام يانصيب. أحياناً، ربحتا ثلثاً (أي وجدتا رقماً واحداً من ثلاثة)، ومرة أو مرتين ربحتا ثلثين اثنين (أي ظفرتا برقمين من ثلاثة)، فاستردتا ولو جزءاً من قيمة مجموع ما خسرتاه في الرهانات. هكذا هو إغراء القمار المنحوس، الذي يندس في عقول ضعفاء البشر، فيوقد خيالهم ويجعلهم يحلمون

Twitter: @ketab_n

بكنوز مخبأة لهم قريباً، بينما لا يُخفي تحت أقدامهم سوى هاوية سحيقة. وسرعان ما لم تعد الجارتان تكتفيان بالتضحية بمدخراتهما لإشباع ولعهما، إنما صارتا تستقطعان أيضاً من مخصصات حاجات بيتيهما اليومية الضرورية. هكذا، من دون علم زوجيهما، أصبحتا تشتريان الخبز بالدَّين. واتفقتا مع تاجر المشروب على الدفع كل ثلاثة أشهر، ومثل ذلك مع البقال وبائعة الفواكه والخضار والإسكافي، وما إلى ذلك.

تراكمت الديون إلى درجة أغضبت الدائنين. علم الزوجان، خَرَّاط النحاس ومُطرِّي الجلود، فأنَّبا زوجتيهما تأنيباً مشروعاً وعنفاهما. ولم تسترد المرأتان ثقة بعليهما إلا بعدما قطعتا وعداً حقاً بالعزوف عن تلك العادة، التي كانتا تدركان خطرها الكبير. فكفَّ الأطفال عن العويل، وتلاشت الفاقة رويداً رويداً، وعادت بحبوحة الحياة، ومعها ذلك الوئام الرقيق الذي كان صبغ حياة الزوجية سنوات من قبل. لكن، بغية تسديد الديون، ومقاومة التيار لإعادة القارب المنزلي إلى المسار السوي، تطلب الأمر تجذيفاً شديداً، لا هوادة فيه ولا رحمة. أدَّى بيرنار المهمة أداءً أكثر من مشرف، مضاعفاً العمل والمثابرة، لدرجة خارت فيها قواه، للأسف. تدهورت صحته، فمرض، فاحتضر،

Twitter: @ketab_n

فذكر زوجته بعهدها المقدس بترك اليانصيب نهائياً، وأوصاها بطفليهما. ثم لفظ نفسه الأخير.

كان الولد البكر في سن زهاء خمس سنوات، وأخته الصغرى أربع. يا لليتيمين المسكينين! لم يعد لكما سند في الدهر غير أمكما، البارعة في صنعتها – الحق يقال – لكن ذات فكر كان لا يزال يختمر فيه الحلم بمصير أفضل، ما من شأنه، ربما، أن يذيقكما الأمرين، ويسبب لكما الحرمان تلو الحرمان.

كان السيد أوبير أيضاً أباً لطفلين، إنما بشخصية أقوى وأقسى من جاره المرحوم. لم يثق تامَّ الثقة بوعود قرينته، فتصرف بحذر شديد، كأي أب حريص على أسرته، وأحكم شدَّ حبل صُرَّة نقود البيت. كما كان يستعلم بنفسه إن كانت زوجته تدفع بانتظام إلى الممونين كلهم، واحداً واحداً، ونقداً. لم يعد يترك معها من مال سوى ما يكفي لكفاف اليوم، فتشاجرت معه أحياناً جراء ذلك. لكنه لم يَلِن ولم يرتخِ. أما السيدة بيرنار، الأرملة، بالتالي الحرة في تصرفاتها، فأبقت في ذاكرتها الوعد الذي قطعته على زوجها محتضراً.

Twitter: @ketab_n

التزمت الجارتان وقتاً بتعهداتهما. لكنهما، يوماً، وهما تتنزهان في شارع «فوبور سان مارتان»، مرتا من أمام أحد مكاتب بيع اليانصيب، وضعت في واجهته يافطة كبيرة تعلن عن ربح أحدهم الثلاثة أرقام معاً، وقبض الجائزة الكبرى المنشودة. خُطَّت الأرقام الرابحة خطاً جميلاً، وأحيط كل منها بشرائط زاهية، تستقطب الأنظار، وتشد القلوب تطلعاً إلى حظ مماثل. اكفهر وجها التائبتين المزعومتين، وارتسمت على محييهما تعبيرات التأسف، بعدما رأتا تلك اليافطة المبتدعة من الشيطان المُضِلّ نفسه. بدت تنهيدات كل منهما وكأنها تقول:

– أفٍّ! ماذا لو كنت أنا مَن حظي بإيجاد الأرقام الثلاثة؟

في صباح تالٍ، تلاقت الجارتان في المخبز. قالت إحداهما للأخرى:

– عليَّ أن أخبرك بحلم انتابني فقضَّ مضجعي وعذبني.

استفسرت الأخرى، وهي أرملة بيرنار:

– ما هو، يا سيدة أوبير؟ أخبريني.

– حلمت الليلة بأنني اشتريت ثلاثة أرقام في المكتب،

Twitter: @ketab_n

فربحت ثلاثية من 45 ألف فرنك.

– يا للمصادفة العجيبة! لقد حلمت الحلم نفسه. ما هي الأرقام التي حلمت بها؟

– 17، 26، 53.

– هذا لا يصدق! إنها معجزة: هذه هي بالضبط الأرقام التي حلمت بها.

– قطعاً، أنت تمزحين.

– بشرفي كامرأة نزيهة، هي الأرقام التي حلمت بها: 17 و26 و53. بقيت محفورة بعمق في ذاكرتي، ولن أنساها ما حييت.

– هل تعرفين، يا سيدة بيرنار، أنه حقاً إلهام من السماء؟

– أعتقد ذلك، مثلك تماماً.

– آه! لو لم يكن زوجي استعاد السيطرة على شؤون المال!

– ألستُ هنا؟ سأسلفك، وستسددين عندما تستطيعين. فمن المستحيل ألا نستجيب إلى نداء البخت هذا. مثلما تقولين، إنه

Twitter: @ketab_n

إلهام من السماء. كم سنصرف؟

– حلمت بأنني راهنت بـ50 فرنكاً.

– فليكن. سنلعب بـ25 فرنكاً لكل واحدة. سأذهب حالاً إلى المكتب للعب الأرقام الثلاثة.

– العبي الثلث والثلثين أيضاً، ما قد يؤمن جائزة بسيطة للتسلية.

– اعتمدي عليَّ.

ركضت المقامرة الميئوس من شفائها إلى مكتب المراهنات، لاهثة، رأسها يسابق رجليها. فهي ارتاحت كثيراً لأنها وجدت تلك الحجة الجبارة لنكث العهد المقطوع على زوجها الراحل. نقدت الـ50 فرنكاً، موزعة كالتالي: 20 فرنكاً على الثلاثية بأكملها، و5 فرنكات على كل من الأثلاث الثلاثة، و5 فرنكات على كل من احتمالات الثلثين، أي خروج رقمين من أصل ثلاثة، وهي ثلاثة احتمالات. بعبارة أخرى، الثلاثية تعني خروج الأرقام الثلاثة كلها (أي، في مثالنا، 17 و26 و53، كلها معاً). في هذه الحالة، يكون الربح 5500 ضعف الرهان. والثلثان يعنيان سحب أي اثنين من الأرقام الثلاثة المراهن عليها (17 و26، أو

Twitter: @ketab_n

17 و53، أو 26 و53). في هذه الحال، يساوي الربح 270 ضعف الرهان. أما الثلث، فيعني خروج رقم واحد، وحسب (إما 17 أو 26 أو 53). وربحه 15 ضعف قيمة الرهان.

ضمت أرملة بيرنار البطاقة الثمينة على صدرها، وعادت إلى البيت. وفي الغد، ناولتها إلى شريكتها الجارة. انتظرتا بفارغ الصبر نتيجة السحب المشهودة، المقررة بعد ثلاثة أيام. منذ الصباح الباكر ليوم إعلان النتيجة، خرجت أرملة بيرنار حتى قبل أن توقظ طفليها، اللذين صحيا وهما يصرخان. ذهبت أمهما، فوقفت على عتبة مكتب الرهانات، كأنها حارس.

وبعدما فتح المكتب، عُلقت الأرقام الرابحة، التي لم يكن من بينها أي مما راهنت عليه مع جارتها. هرعت السيدة بيرنار لكي تبلغ جارتها بالنبأ السيء، مع توخي عدم إسماع ربِّ البيت. فتذرعت بطلب خدمة بسيطة من جارة إلى جارة. لكن السيدة أوبير لم تتزعزع لتلقِّي خبر الخسارة، إنما على العكس تشبثت وأصرَّت، مؤكدة أن السماء أرادت اختبارهما، وأن عليهما إعادة الكَرَّة. وافقتها أرملة بيرنار في ما ذهبت إليه، ووعدت بإقراضها مجدداً مبلغ حصتها للمراهنة على السحبة التالية. عادت إلى البيت، حيث كان الطفلان وحيدين ومحبوسين خلف

Twitter: @ketab_n

الباب، المغلقة بالمفتاح من الخارج. كانا يصرخان ويولولان، فهدأتهما بوسائل تجلَّت فيها شدة مرارتها وسخطها إثر الخسارة. يا للصغيرين المسكينين! حتى عليكما، تتكالب نزوات البخت.

بعد عشرة أيام، حل موعد السحبة التالية. نمَّت السيدة بيرنار عن عجلة مماثلة، والتزام مماثل بالموعد المضبوط. في هذه المرة، كان رقم 26 بين الأرقام الرابحة. فرحت أم الطفلين، وسارعت لتبشر جارتها. اغتنمت هذه الفرصة لكي تعرب عن قناعتها بأن جهودهما ستأتي أُكُلها عاجلاً أم آجلاً. درَّ الثلث الرابح 75 فرنكاً، ما يعني أن دَين السيدة بيرنار تقلص إلى 25 فرنكاً. عاودتا لعب الأرقام الثلاثة، فلم يخرج أي منها في السحبة. ثم كررتا الأمر للمرة الرابعة. في تلك المرة، ابتسم البخت، فأربحهما ثلثين اثنين (أي خروج رقمين من بين ثلاثة)، بلغ ربحهما 1350 فرنكاً، يعني 675 فرنكاً لكل من الشريكتين. يا للفرحة! يا للنصر! وخصوصاً يا لتعاظم الثقة بالأرقام الثلاثة، بالتالي الإصرار على لعبها مراراً وتكراراً!

هكذا، عادت الـ1350 فرنكاً بسرعة إلى المصدر المنحوس الذي وهبها. أزمعت الجارتان الاستمرار في شراكتهما. لكن، طرأ ما يعيق قرارهما بأن كشف مُطرِّي الجلود اللعبة. السيد

Twitter: @ketab_n

أوبير رجل ممتاز، إلا أن فظاظة طبعه تفضي إلى العنف أحياناً. وجَّه إلى أرملة بيرنار تهديداً «ودياً» جداً، مفاده أنها لو تجرأت على القدوم إلى بيته مجدداً، ولقاء زوجته، فإنه سيتكفل إما بطردها من الباب، أو رميها من الشباك. ثم أرغم امرأته على بيع حلقاتها الذهبية وقرطيها، وحتى أغلى ملابسها، لكي تسدد مرة واحدة ما كانت أقرضته إياها شريكتها في القمار. أضاف بحدة، موجهاً الكلام إلى زوجته:

– سأفرح لأن يراك سكان الحي بملابس عتيقة مهلهلة، وأن يلحظوك مجردةً من حليك كلها، فيهللون: «هذا من فضل اليانصيب». سيلقن منظرك درساً لمن هن مجنونات كفاية لكي يُعرضن للخطر راحة بالهن وسمعتهن، ودرساً لأزواجهن البلهاء، الذين لا يتصرفون إزاء مرضهن.

وبما أن مُطرِّي الجلود كان معروفاً بعناده، وإصراره على رأيه، وبما أن تربية طفليه تربية حسنة شكلت دافعه الأول، لم يكن ثمة مهرب من تلبية رغباته. اضطرت السيدة أوبير، على أقسى مضض، إلى التخلي عن حليها وحلتها الخاصة لأيام الأحد. فصارت، وهي تنزه ابنها وابنتها المزدانين بملابس جميلة ونظيفة، أو تصطحبهما إلى الكنيسة، تبدو وكأنها خادمة فقيرة

Twitter: @ketab_n

تفسح أولاد أربابها، بحيث تنتاب المحسنين الرغبة برمي قطعة صغيرة إليها من باب المعروف. جرحتها تلك الحالة في كبريائها أيما جرح. لكن، بات لزاماً عليها التكفير عما اقترفت. لم يشفق عليها زوجها، ولم ينفق عليها لشراء ملابس جديدة، إلا بعدما تأكد من قطيعتها التامة مع جارتها، المقامِرة الميئوس من شفائها.

السيدة بيرنار، من جانبها، لم تعد ترغب في التواصل مع زوجة أوبير، بعدما يئست من إمكانية التشارك معها في اللعب. إلى ذلك، حرصت على تفادي غضبة مُطرِّي الجلود. بل عمدت إلى تغيير محل سكنها، فانتقلت، ومعها ورشتها للخياطة، إلى شارع «تامبل»، في شقة في الطابق الثاني. وعقدت العزم على الانصراف إلى مشاغلها وتربية طفليها، اللذين تفتَّح وجهاهما حبوراً وراحة وقناعة. حقاً، ثمة حالات يبدو فيها أن الطبيعة تتغلب على الغواية والولع، فتعيد إلى الطريق السوي أكثر القلوب ضلالة.

ما لبثت الخَيَّاطة الماهرة أن تألقت بعملها في الحي الجديد. وسرعان ما حظيت ورشتها بسمعة طيبة، وتوافدت إليها زبونات كثيرات، وتلقت طلبيات عديدة. فجنت صاحبة المحل ربحاً وفيراً، واستعادت بحبوحة الحياة، ونعمت باعتراف المجتمع. بدا وكأن الشروط كلها اجتمعت لدحر هوى القمار عندها إلى

Twitter: @ketab_n

غير رجعة، الذي يا ما كلفها من تضحيات وعذاب.

لكن الأرقام الثلاثة، 17 و26 و53، لم تُمحَ من ذاكرة أرملة بيرنار. كانت تفكر فيها نهاراً، وتحلم بها ليلاً. غريزة دفينة مبهمة، عصية المقاومة، كانت تحضها على الانتكاس، مصوِّرة لها تلك الأرقام مفتاحاً سحرياً للثراء. فرقم 26 سُحب مرة. ورقما 17 و53 خرجا معاً في سحبة أخرى. كل شيء يشير إلى أن الأرقام الثلاثة ستسحب معاً، مرة واحدة، فتعطي ثلاثية تامة تربح 5 آلاف و500 ضعف قيمة الرهان، فتؤمن الجاه الذي رأته في الطيف. هكذا، مجدداً، ضحَّت بكل شيء من أجل المراهنة على الثلاثية المنشودة، وبمبالغ معتبرة أملاً في ربح أعلى. هكذا، لكل سحبة، راهنت بـ100 فرنك للثلاثية التامة، و90 فرنكاً لاحتمالات الثلثين (أي 30 فرنكاً لكل احتمال)، و15 فرنكاً لكل رقم على حدة (ما مجموعه 45 فرنكاً). هذا يعني 235 فرنكاً لكل سحبة من سحبات باريس.

وعندما نعلم أن السحبات كانت تتكرر ثلاث مرات في الشهر، ندرك أن السيدة بيرنار باتت تصرف 705 فرنكات شهرياً على اليانصيب. وذلك مبلغ لا تقدر على تأمينه حتى أكثر ورشة خياطة رواجاً وتوفيقاً. مضت أكثر من ستة أشهر من دون

Twitter: @ketab_n

خروج أي رقم يُذكر، في أي سحبة كانت. اضطرت السيدة بيرنار إلى بيع مجوهراتها وقسم من ملابسها وبياضات بيتها. وصارت تتلكأ في دفع أجور عاملاتها، وتشح معهن، فثبطت عزيمتهن. انهارت تجارتها تدريجياً. وبات إيجارها باهظاً، فلاذت في غرفة بائسة صغيرة في الطابق الخامس، من المخجل استقبال زبونات فيها. هكذا، استحال عليها أن تكون ربة عملها، فاكتفت بالعمل بأجور زهيدة لورش أخرى. ولم يكن العمل متوافراً دائماً.

في هذه الأثناء، كبر الطفلان، وأصبحا في سنّ سبع وست سنوات على التوالي. فكبرت معهما متطلباتهما، وبليت ملابسهما من دون أن تتمكن أمهما من استبدالها. يوماً بعد يوم، ذهبت الأثاث وأفضل الأغراض المتبقية لكي تقبع في مصرف الرهن، الذي يقرض مبالغ بسيطة شرط إيداع أشياء ثمينة بمثابة تأمين. هذه الأشياء تباع بالمزاد العلني، بأسعار بخسة، في حال تخلف المستدين عن الدفع. باختصار، وقعت المقامِرة المتعنتة في براثن البؤس المدقع. لكنها تقبلت الشدة بصدر رحب، ورضوخ لمشيئة القدر. إذ كانت مقتنعة بأن الأرقام الثلاثة التي رأتها في الطيف ستُسحب معاً، وبأنه يكفيها تحمل تضحيات إضافية،

Twitter: @ketab_n

وبذل جهد أكبر في العمل، لكي تضع 40 فرنكاً أخيرة على الثلاثية، فتربح 220 ألفاً.

ظنت المجنونة أصدق الظن أن التشكيلة ستخرج في السحبة الثانية من شهر يناير. باعت كل شيء، حتى قمصان ابنها وابنتها الصغيرين. هي نفسها، لم يعد في حوزتها سوى الثوب الذي يغطي عورتها.

كانت تقول لطفليها عندما يتضوران جوعاً:

– صبراً يا عزيزيَّ الغاليين، صبراً. اليوم أيضاً، اكتفيا بهذا النزر اليسير من الطعام. تكاتفا لتدفئة أحدكما الآخر على الفراش البائس. غداً، ستأكلان خبزاً طازجاً ولحماً طيباً. غداً، ستنامان على فراشين وثيرين، وتتغطيان ببطانيات جديدة سميكة، وستكونان في مأمن من البرد...

كان الطفلان يستمعان بصمت، واثقين بأمهما وكلامها ثقة بريئة. وبعد تناول بعض بقايا من طعام، ينامان مقتنعين تماماً بأنهما سيصحوان على حال أفضل.

أخيراً، حلَّ اليوم المشهود، الذي طال انتظاره وقسا، في عز شتاء قارس. لم تكن المدفأة البسيطة قد أشعلت منذ خمسة أيام

Twitter: @ketab_n

في غرفة الأم وطفليها البائسة، التي وصلت برودتها درجة لا تحتمل. السيدة بيرنار أول من شعر بذلك، لأنها كانت باعت فرشها، مكتفية بالنوم على مفرش من قش حظيرة قديم، وهبه إياها، من باب الإحسان، سائس بيت قريب يعود لأحد أعيان علية القوم. لم تقدر على النوم لشدة البرد. وعندما صحت بضع مرات ليلاً، لم تستعد إلا بالكاد أحاسيسها، المخدرة برداً. لكن الأمل في ربح كبير أنعشها. وفي الصباح الباكر، لم تقاوم نفاد صبرها الجشع، فتركت الطفلين نائمين، وأغلقت الباب عليهما، وخرجت تسير نحو الجادة الكبرى، ومنها توجهت إلى شارع ريڤولي.

هناك، في شارع ريڤولي، داخل مبنى وزارة المالية، توجد مكاتب إدارة اليانصيب العامة، حيث تُجرى سحبة باريس كل عشرة أيام. وصلت والأبواب موصدة، إذ لا تفتح إلا في التاسعة صباحاً. جلست أرملة بيرنار على درجات عتبة المبنى، حيث سرعان ما تقاطر عدد كبير من فضوليين ومراهنين، مثلها، متلهفين لمعرفة آخر قرارات البخت، فأتوا لحضور السحبة مباشرة. لاحظت التعبيرات المختلفة المرتسمة على وجوه الحشد الحاضر؛ هذا متيقن من أنه سيربح، لا محالة، وذاك متهيب من خسارة جديدة؛ هذا بوده لو استرد ما وضعه من مال تحت رحمة

Twitter: @ketab_n

عجلة تدور، وذاك يتأسف لأنه لم يراهن بمبلغ أكبر، متأكداً من أن أرقامه ستُسحب.

لكن، في ذكر الأرقام المرجَّحة، لم يأت على شفتي أي من الحضور ذكرُ 17 و26 و53، التي كانت السيدة بيرنار تحتفظ بالبطاقة المسجلة عليها، ملتصقة بقوة على صدرها. ابتسمت في قرارة نفسها، ساخرة من توقعات المراهنين الآخرين، متأكدة أن أرقامها هي التي ستربح. فكرت أنها، لو عُرض عليها، لن تقبل بتبديلها حتى لو أُلِحَّ عليها بالسؤال. فهي كانت تلعبها منذ سنتين، ولن تقبل بالتخلي عنها.

ثم فتحت الأبواب أخيراً، فاجتاح الجمع الغفير قاعة السحب، واتخذ الإداريون أماكنهم خلف المنضدة. وجيء بالطفل الذي أعارته دار الأيتام لكي يسحب الأرقام. أتوا به معصوب العينين، ويداه مغطيتان بقفازين. دورت العجلة مرات، لخلط أرقام الحظ الـ90 التي تضمها. فجعل كل من المراهنين يقف على أطراف قدميه، ويشرأب بعنقه لكي يؤمن رؤية أفضل، ويحبس أنفاسه. خيم الصمت في أرجاء الصالة. مدَّ الطفل يده، فسحب رقم 16. صرخ بعضهم، قريباً من السيدة بيرنار:

– ربحت الثلث. عندي الـ16.

Twitter: @ketab_n

ثم سحب الطفل رقم 25. فصاح آخر:

– ربحت الثلثين. عندي الثنائية 16/25.

قالت المقامِرة لنفسها، مطمئنة تمام الطمأنينة ومتيقنة تمام اليقين: «ما من مشكلة. أرقامي ستخرج الأخيرة».

اختار الطفل معصوب العينين رقماً ثالثاً، الذي أعلنه الإداري بصوت عالٍ: 52.

فكرت السيدة بيرنار: «يا إلهي، إذن لن أربح سوى الثنائية، من رقمين اثنين. إنه خير من لا شيء، أقله ستعينني ضد البؤس».

سحب الرقم الرابع: 27.

صرخت الخياطة الأرملة مع نفسها: «ماذا، لن أربح إذن إلا الثلث؟».

ثم سحب الرقم الخامس والأخير. وكان رقم 84.

أطلقت الخائبة صرخة باكية، وتهاوت، وقد أغمي عليها، على أقدام من يحيطون بها. بعضهم أفاقها، ورثى لحالها؛ وتشفَّى آخرون وفرحوا لكونها، مثلهم، خاب ظنها، ولم يُجدِها الانتظار الطويل في شيء. في كل مكان، سمعت تمتمة

Twitter: @ketab_n

الانزعاج وهمسات الامتعاض ولعنات البخت على أفواه الخاسرين الكثيرين. فنفر قليل ربح أحادية أو ثنائية، وواحد فقط فاز بالثلاثية في ذلك اليوم، بقدرة قادر. لكن، كانت الأكثرية الساحقة من بين الحاضرين تجرجر أذيال الخيبة. عادوا خائري القوى، لكي يبلغوا عائلاتهم المحزونة بخبر إتمام إفلاسهم واستفحال يأسهم.

على الرغم من كل شيء، عادت السيدة بيرنار المسكينة إلى وعيها. فألقت بنظرات شاردة إلى البطاقة بين يديها، بعدما أخرجتها من مخبئها في صدرها. فأدركت، مرتعدة هلعاً، كم أن البخت يتلاعب بها ويسخر من سذاجتها. إذ لحظت أن ثلاثة من الأرقام الخمسة المسحوبة تلامس الأرقام الثلاثة التي يا ما لعبتها منذ عهد. كان حلمها قاتلاً، وإصرارها مذنباً، وولعها منحوساً. وجدت نفسها من دون أي فلس، مع طفلين عليها إعالتهما. ويا ليت لو كان عندهما على الأقل ملابس لتدفئتهما، وكسرة خبز لسد رمقهما. عشية ذلك اليوم، لم يأكلا إلا أقل من القليل. وفي ذلك الصباح نفسه، لم يكونا تناولا شيئاً لحد تلك اللحظة. يا لهما من طفلين رائعين! وأبوهما أوصى بهما أمهما بإلحاح قبل أن يلفظ نفسه الأخير...

Twitter: @ketab_n

في خضم تلك الأفكار الخانقة، توجهت السيدة بيرنار عائدة إلى حي سكنها، مزمعة الاستجداء هناك لإطعام صغيريها الغاليين. الدرب طويل من وزارة المالية إلى شارع «فوبور سان مارتان». ومشية المسكينة الخائرة، المثقلة بألم شديد الوطأة، أحالت الطريق أكثر إرهاقاً. كانت الجادات مغطاة بالثلج وصقيع الندى المتجمد. بدت العناصر كلها وكأنها تحالفت ضد الأم الخائبة.

أخيراً، وطئت باب مبنى مسكنها، بوجه منهار ونظرات ضائعة. لم تكن أفطرت بعد، والبرد أثلجها، لاسيما وأنها لم يعد في حوزتها من ملابس سوى الثوب الذي على جلدها. أبلغها جيران أن طفليها صرخا بحدة في غيابها، لكن شدة الصراخ خفتت تدريجياً، ما دعاهم إلى الظن بأن معاناتهما تحول دون أن يقدرا على الصراخ. ركضت إلى الغرفة، وفتحت الباب. فوجدت الكائنين البريئين ممدين من دون حراك، ملتصقين أحدهما بالآخر. كان الأخ والأخت ما يزالان ممسكين بيدي بعضهما، وسريرهما البائس مقلوباً إلى جانبهما، ما يدل على أن البرد غزا جسديهما. ضمتهما أمهما بين ذراعيها، ورددت بشكل يحاكي الهذيان:

– پروسپير... لويز... فلذتي كبدي الغاليين، دعاني أدفئكما

Twitter: @ketab_n

بقبلاتي وأنفاسي. افتحا عيونكما. ردًّا عليَّ. ابني! ابنتي! ماذا؟ لا نظرة، لا نفَس، لا إشارة حياة. يا إلهي، يا إلهي احفظهما. يا ربِّ ارحمني...

صاحت طلباً للنجدة بصوت يمزق القلب، فهرع أقرب الجيران، مذعورين. من بينهم طبيب ماهر يسكن في الطابق الثاني. فحص الطفلين شبه التوأمين، فأومأ برأسه إلى باقي الجيران بإبعاد الأم. لم تشأ هذه الابتعاد عنهما، وأصرت على السعي إلى إنعاشهما بين ذراعيها.

قال الطبيب، ذو السمعة العالية:

– لن يجدي هذا في شيء يا سيدتي. لم يعد طفلاك من هذا العالم.

هذه الصاعقة الجديدة حطمت المذنبة، التي أقرت – إنما بعد فوات الأوان – بأن الصغيرين الرائعين المحبوبين ماتا برداً وجوعاً، إذ لم يأكلا منذ زهاء 24 ساعة، ولم يقدرا على الاحتماء من قسوة الموسم بالملابس المهلهلة القليلة المتلفعَين بها. يا لندمها الرهيب، الذي مزق قلبها! يا لاهتزاز كونها بأسره! انتزعوها انتزاعاً من الضحيتين البريئتين، اللتين بعث منظرهما جثتين هامدتين على

Twitter: @ketab_n

الرأفة والانفعال، وبلل عيون الحاضرين جميعاً بدموع مرة.

قالت مولولة، بلكنة اليأس:

– هكذا إذن، تسببتُ في موت خيرة الأزواج جراء حمله على الإسراف في العمل، ثم في موت طفليه، اللذين أوصاني بهما، فقتلهما البؤس والعوز بسببي. أنا خائبة بائسة، لا تستأهل شفقة الخلق ولا رحمة الخالق.

حالاً عقب ذلك، بدأ عقلها يختل أكثر وأكثر. صارت تظن أنها ترى زوجها الراحل وطفليهما يحيطون بها، ويصرخون ويتشكّون ويؤنبونها تأنيباً مُرّاً. فجعلت تنتقل بغتة من عويل الرهبة إلى نوبات الضحك العصبية، أو من الرقة والنشيج الهادئ إلى الغضب العارم. باتت من دون ملجأ، فنقلت إلى دار للمجذوبين، حيث حاول القيمون تهدئة عصبيتها المحمومة، إنما من دون جدوى. لذا، زجت في إحدى زنزانات مستشفى «لا سالپيتريير»، وما تزال هناك ليومنا هذا، بعينين تشعان كَلَباً، وجسد متورم، شبه عارٍ، تارة تتشبث بقضبان الزنزانة الحديدية، وتارة تضطجع على ألواح مغطاة بوحل قذر. ما فتئت تردد بصوت عالٍ، وبابتسامة مرعبة، الأرقام الثلاثة،

Twitter: @ketab_n

التي تعتقد أنها وراء جاه تظن صدقاً أنها بلغته أخيراً[1].

المشهد مروع، لكنه نموذجي. إنه عِبرة لزوجات الحرفيين، لاسيما الأمهات منهن، ممن لا يخفن من التضحية بحياة هادئة ومستقبل واعد وتقدير الغير وثقة أزواجهن وهناء أولادهن، بل وحياتهم، من أجل أكثر الممارسات جنوناً وأقلها صواباً وبصيرة، وآخرها أملاً واحتمالاً، نعني ولع القمار.

(1) قد يتعجب القارئ من وجود زنزانات في مستشفى. في الواقع، شذّ مستشفى La Salpêtrière (في باريس 13) عن القاعدة. ففي 1684، ألحق به مبنى خصص لإيواء بعض النساء عنوة، كالمجنونات والضائعات والمتخلفات عقلياً، وأحياناً حتى معاقات جسدياً. وخضع ذلك السجن الإلزامي الرهيب إلى الاعتباط التام، وتركت «السجينات» في حالة مزرية، من دون رعاية طبية أو نفسية أو اجتماعية، وطبعاً من دون محاكمة بما أنهن لسن مجرمات. بالمعنى الجنائي. أورد الكاتب ذلك المثال تشديداً على قسوة نهاية «بطلة» الحكاية. فالانتهاء في إحدى زنزانات ذلك المستشفى كان يعني، آنذاك، أوطأ درجات الحضيض. (المترجم)

Twitter: @ketab_n

العرّافة

منذ القدم، طالما عول الاحتيال على سذاجة الناس. لكن، من بين النصابين العديدين الذين يستغلون الطيبة والثقة في كل يوم، لا أسوأ على راحة البال وأشد وبالاً على بهجة العيش من أولئك السحرة الكذابين والمنجمين ومستحضري الأرواح وفتاحي الفأل والعرافين، الذين يرددون تنبؤات زائفة عبر القراءة في رموز كاذبة وإشارات سحرية خداعة، وألعاب يزعمون أنها من حركة الكواكب، من أجل بث الهلع في النفوس الخائفة، وتأجيج الولع، وخدمة مصالح معينة، وفي معظم الأحيان دس الفُرقة والخلاف بين أزواج سعداء.

تلك الملة الخطيرة، التي تعمل في الظل تقريباً دائماً، لها جذور متأصلة منذ بدء التاريخ. وفنها الكاذب يجد أقوى صدىً عند النساء بشكل أساسي. فهن فضوليات بالغريزة، وينتابهن القلق في شأن العواطف والهوى. ينطلقن من دون تفكير نحو كل ما من شأنه أن يعذبهن، وكأنهن يرمن استفزاز القدر. يسعين إلى

Twitter: @ketab_n

فك الألغاز وكشف أسرار الغيب، ظناً أنهن سيقدرن على تفادي ما يخبؤه من محن، أو الاستفادة منها لمصلحتهن. هكذا، نرى ربة البيت والمراهقة الخجولة ترتادان، كلتاهما، المخدع الباطني المنزوي لأولئك العرافات اللائي يسحبن أوراق اللعب. تتمكن هؤلاء، عبر أسئلة بارعة ماكرة، من التوغل في أعماق القلب البشري، فيبثثن فيه أحاسيس الخوف تارة، وبشائر الأمل تارة أخرى، الانهيار ثم الهِمَّة، العقاب ثم الثواب. يفضي عملهن إلى قلب الأفكار ونسج الأوهام. ولا تتجلى إلا لاحقاً هيبتهن الكاذبة وزيفهن المؤذي.

لكن، طالما لا ينكشف النقاب، لا ترتاح بتاتاً النفس المخدوعة بالخيال. فتتحول تلك الرغبة المجنونة بمعرفة المصير مسبقاً إلى حاجة دائمة، وعطش متقد لا يقبل الارتواء. ومن أجل إشباعها، لا يتورع صاحبها عن التضحية بكل ما يملك، ولا يردعه أن يصبح مهزلة وأضحوكة، ولا يأبه بتعكير راحة باله وتلطيخ سمعته.

عموماً، أحياء باريس الشعبية هي التي تـؤوي عرافات آخر زمان، اللائي يسحبن أوراق اللعب للتكهن. إنهن بحق كالعلقات، تلك الحشرات التي تمص الدم. فهؤلاء الساحرات

Twitter: @ketab_n

يسحبن من العائلات آخر ما ملكت أيديها، ويمارسن عليها سلطة متزايدة كل يوم، تدعو إلى الاشمئزاز والسخط. في معظم الحالات، يخترن للسكن أماكن منعزلة، يعمدن إلى تزيينها بكل ما من شأنه شحذ الخيال وإعطاء فكرة مشرفة عما يزاولنه. هنا لوحة تمثل دانيال، أمير يهودا الشاب، مقتاداً عبداً راكعاً على قدمي نبوخذنصر، وساعياً إلى إنقاذ قومه المساكين، المرميين في جمر وهاج. وهناك رسم آخر يمثل النبي يوسف يفسر حلم الفرعون، فيتنبأ بحلول سنوات سبع عجاف، فينقذ مصر من المجاعة.

إلى جانب تلك اللوحات، ثمة رسوم أخرى تصور ألبير العظيم، وأشهر أعماله، وهو الخيميائي الشهير الذي يُروى أنه تمكن من صنع رأس من البرونز يجيب عن الأسئلة كلها التي تطرح عليه. وهناك أيضاً لوحات تمثل نوستراداموس، الفلكي الذائع الصيت، دارساً أبراج الملوك ومتنبئاً بحركات السماء وأحداث الأرض الكبرى. وثمة رسوم أخرى تمثل الساحر الإيطالي الشهير كاليوسترو، مع امرأته الحسناء لورينزا، مزاولاً مهنة السحر في بلاطات أوروبا، لاسيما في فرنسا. وهناك أيضاً رسوم للمنوم المغناطيسي الألماني فرانتز أنطون ميسمير، تريه وهو يربط بحلقته المغناطيسية أبرز شخصيات باريس وأعيانها.

Twitter: @ketab_n

وأخيراً، ثمة لوحات لمستحضِرة أرواح شهيرة في أيامنا هذه، تمتلك الموهبة والمقدرة على استقطاب أعداد من الفضوليين نحوها، من الجنسين ومن الأعمار كافة. ومثل «پيثونيا» لدى قدماء الإغريق، التي كانت «هاتف الآلهة»، تبث هذه الأخيرة تنبؤاتها على لسانها، تتلو صاحبتنا العرافة نبوءات وهي تستشير أوراق اللعب أو تقرأ الفنجان، أو تتمعن بياض البيض. يا لها من حيل خلاقة متقنة، تعيش على سذاجة أكثر الأهواء بلادةً وغباءً! يا لها من ألاعيب عجيبة، لا تهدف إلى شيء آخر سوى فرض ضريبة عالية على البلاهة! لكن، ربما يُجدي الضحك منها في ردع من تراودهم أنفسهم الانزلاق في ذلك الدرب.

من بين العرافات الساحبات أوراق اللعب، ذاع صيت السيدة ألبير، التي أصبحت استشارتها موضة زمانها. كانت خمسينية أتت من منطقة «لانغدوك»، في جنوب فرنسا، ذات جثة ضخمة، وبشرة شاحبة ممتقعة، ورقبة طويلة هزيلة عجفاء، ونظرات متوحشة، ويدين معقوفتين، وصوت أجش، وطلاقة لسان لا نظير لها. وتقطن في شارع «فوبور دو تامپل»، في كعب زقاق مظلم يفضي إلى منزل صغير، أمامه سلَّمان مزدوجان. كان الفضوليون الواصلون يصعدون الدرج الأيمن، والمخدوعون الخارجون ينزلون الدرج الأيسر.

Twitter: @ketab_n

تتلفّع العرافة الجسيمة دوماً باللون الأسود، على الموضة القديمة، وتحمل على صدرها صفيحة كبيرة خُطَّت عليها حروف هيروغليفية من اللغة المصرية القديمة. وعلى أذنيها، تتدلى أقراط من ذهب، مصاغ كل منها على شكل ثعبان يعضُّ ذنبه. وعلى رأسها، كانت الساحرة تعتمر قلنسوة من مخمل مبشور، مزينة في أحد طرفيها بإبزيم يضم حجراً أسود واحداً، تزعم أنه قطعة من حجر فلاسفة تدعي أن من اكتشفه كان جدها، ألبير العظيم. بيتها الغامض، محل تنبؤاتها، يحميه باب من حديد سميك، مزودة بمغلقين اثنين.

لم تكن السيدة ألبير تستقبل أحداً قط في أيام السبت، يوم اجتماع السحرة كلهم، برئاسة إبليس، يحتفلون خلاله ويمتنعون عن العمل. منذ الصباح الباكر، كانت تذهب لكي تفسح أحلامها في مختلف مقابر باريس، وتستقطب أناساً لحملهم على نهج منهجها، ثم تعود ممسكة بأزهار جنائزية، متظاهرة بالتقوى والخنوع والزهد، ومدعية بأنها لا تأكل سوى نزر الطعام اليسير اللازم للبقاء، بينما، في الواقع، تكون قد ذهبت إلى منطقة حاجز باريس، وتناولت هناك وجبة عامرة في أفضل مطاعم العاصمة، وشربت زجاجة مشروب أو اثنتين، بصحة زبائنها الكثيرين.

Twitter: @ketab_n

على الرغم من ذلك، رغبة منها بتغطية نفسها بحجاب الحشمة والوقار، ما من شأنه أن يبعث على الاحترام والثقة، حرصت السيدة ألبير على إغاثة فقراء الحي ممن أقعدهم المرض وعزلهم البؤس، فجعلهم حبيسي خرائبهم المزرية. كانت تنعشهم وتعيد نشاطهم بالكلام المعسول المنمق، وتترك دوماً قطعة نقود صغيرة لكي تعينهم على سد الاحتياجات المُلحَّة. لم يكن على ألسنة أهل الحي سوى اسم السيدة ألبير. في الشارع، كان يستشيرها كل من يقابلونها، فتؤكد لتلك الأم الحنون أن ابنها الغالي، الجندي الغائب منذ عامين، سيعود قريباً؛ ولذاك العجوز المصاب بداء النقرس أنه سيُشفى مع حلول أول أيام الربيع؛ ولتلك العروس الشابة الحبلى ولادة هانئة هادئة، وهكذا دواليك. وكانت العرافة الماكرة تتلقى، لقاء مجاملاتها، تعبيرات صادقة عن بالغ الشكر وجزيل الامتنان، ويرتفع رصيدها المعنوي في الحي، وتترسخ سمعتها.

كانت العرافة تبث تلك النبوءات مجاناً، وتدسها ببراعة بين الناس. أما ساعة الدفع، فلم تكن تحين سوى لاحقاً، عند مجيئهم لاستشارتها في عقر دارها، في مواعيد محددة مسبقاً. والسعر يتراوح بين مبلغ 20 فلساً التافه لضبة أوراق اللعب الصغيرة

Twitter: @ketab_n

الاعتيادية، وثلاثة فرنكات لمجموعة أوراق اللعب من الدرجة الأعلى. تضم هذه 56 قطعة من الورق المقوى، طبعت عليها علامات استحضارية، وأدعية مختلفة، وأحرف من اللغة العبرية. على تلك الأوراق، مصائر الناس مسجلة، ومعرفتها متاحة لكل من يتحلى بالجسارة الكافية على استفزازها. لم يكن ثمة شيء أكثر إثارة للفضول، والسخرية أيضاً، من رؤية مُراجع يشحب ويختض هلعاً وهو يقطع بيده اليسرى شَدَّة ورق اللعب التي تضعها السيدة ألبير أمامه؛ وآخر يقصُّ خصلة من شعره، مرتجفاً ومتوجساً؛ وأخرى تقص قطعة من حمالة جوربها؛ وأخرى تظهر رائحة يديها، أو تعدُّ نبضات وَدْجها ودقات قلبها.

لكن الشيء الأطرف كان يحصل عندما يصل الزبون إلى مرحلة رؤية صورته في المرآة السحرية، التي تظهر بشرته مخضرَّة، ونظراته ضائعة، وأنفه مكسوراً، وحنكه ناتئاً، وفمه مشقوقاً حتى الأذنين. آنذاك، كان المراجع يرتعب سِرًّا، ويرتعد لرؤية نفسه مشوهاً على ذلك النحو، ظناً منه أنه عقاب عادل لما اقترفه من خطايا. ويا لها، في تلك اللحظات، من دورة حول الذات! لحسن الحظ، كانت المرآة تتغير، فيعود الوجه إلى الانعكاس فيها بتقاطيعه الأصلية، بل يبدو وكأنه زاد تألقاً وشباباً.

Twitter: @ketab_n

نتفق بسهولة على أن ساحبة أوراق اللعب، بمثل تلك البراعة والخفة والألاعيب المتقنة، نجحت في اكتساب سمعة عالية في «فوبور دو تامپل»، الحي المناسب جداً لمهنتها، بما أنه يفضي إلى حي «بلڤيل»، الذي يضم أشهر المقاهي الشعبية في العاصمة، ما كان يؤمن لها موارد إضافية كبيرة في أيام الأحد، وربما حتى الاثنين. إلا أن جل الزبائن كان من بين سكان الجوار، في حي «فوبور دو تامپل»، الذين لم يكن معظمهم ليفوت أسبوعاً واحداً من دون القدوم لاستشارة الساحرة.

وكانت السيدة موران من بين الزبونات اللائي يطرقن بانتظام باب وكر الساحرة. كانت زوجة إسكافي، وأماً لفتاة اسمها ألفونسين، في سن 16 عاماً، ذات وجه مليح. أما السيد موران، فكان حرفياً ممتازاً ورجلاً من خيرة الرجال، لا يهتم سوى بإرضاء زبائنه الكثيرين، وبجمع ما يكفي لمهر مشرِّف لابنته، بهجة حياته وأمله فيها كسند لشيخوخته. كانت زوجته ممتلئة الذهن بالعديد من الروايات، وقراءات كثيرة لكتب السحر والسَّحَرة. لذا، بيَّتت طموحات مغرورة في شأن ابنتها، مزمعة تزويجها زواجاً يخرجها من طبقة البسطاء التي ولدت فيها. وألفونسين نفسها، مُسيَّرةً من أمها، تبعتها في أوهامها المجنونة، فجعلت تتصنع طباعاً وسلوكاً ولكنةً في الكلام ليست على

Twitter: @ketab_n

سجيتها، لكي تُفهم بأنها لن تقترن سوى بمن شأنه الارتقاء بها إلى طبقة تناسب مقامها وسلوكها.

تعنتت الأم وابنتها، وتشبثتا أكثر بتلك الأفكار الطموحة إثر نبوءة تلتها ساحبة أوراق اللعب، أكدت فيها أن ألفونسين ستحظى بزيجة حسنة للغاية. فالصبية ذهبت مراراً مع أمها لاستشارة السيدة ألبير. فزعمت هذه أن ورقة «الملكة» ذات علامة القلب شكلت رمزاً صارخاً للفتاة ألفونسين، وأنها كانت تخرج مراراً محاطة بورقتي الفارس من علامتي «سباتي» و«بستوني». وبحسب تفسيرها، كان ذلك خير دليل على أن الآنسة موران ستكون محط غزل شابين من طبقة البرجوازية الراقية، وربما حتى من النبلاء، وموضع تنافسهما عليها سعياً إلى الظفر بها. كما زعمت أن الشابين سيكونان كلاهما داكنَي الشعر، وكل منهما ذو قامة فارعة ووجه جميل. لكن، كان مستحيلاً، بعدُ، التكهن بمن منهما سيطلب يدها قبل الآخر.

تطلبت تلك المعلومات القيمة استشارات متعددة لأن الغيب مغطى بحجاب من غير المسموح رفعه مرة واحدة، وينبغي التريث في كشف برقع الأسرار. هكذا، للتوصل إلى تلك الاستنتاجات بالغة الأهمية، صرفت زوجة الإسكافي ما يوازي تصليح عشرات أزواج الأحذية.

Twitter: @ketab_n

اقتنعت ألفونسين بأنها ستسحر قلبي شابين وسيمين، داكني الشعر، سيتباريان للظفر بسعادة اتخاذها زوجة. لكن، من منهما سيفوز؟ وإلى أي عائلة ينتمي؟ ما سِنه؟ ما أذواقه وميوله وشخصيته؟ هل يعمل في التجارة، أم هو ضابط في الجيش، أم أرستقراطي من النبلاء؟ هل يسكن في باريس أم في المحافظات؟ طرحت تلك الأسئلة كلها على الساحرة البارعة، التي لم تكن تقدر على الإجابة سوى عن سؤال واحد في كل زيارة. كانت تتسلم، في كل مرة، أجراً إضافياً، وطبعاً، كالعادة، من دون علم السيد موران، الذي بدأت مدخراته تضمحل يوماً بعد يوم.

فالإسكافي الطيب كان يثق تمام الثقة بعقيلته، ومنهمكاً أشد الانهماك في عمله، فلم يكن لديه الوقت للاهتمام بإدارة نفقات المنزل. ضاعف الكدَّ لكي يؤمن لابنته مهراً مناسباً. لكنه كان يجهل طموحاتها، إنما يأمل، ببساطة، تزويجها إلى فتى طيب من أبناء صنعته، يضمن إسعادها مثلما يسعد قرينته منذ 20 عاماً. على الرغم من ذلك، لاحظ أن ابنته كانت تقابل الإسكافيين والحرفيين بجفاف، بل وجمود وتعالٍ. وانتبه إلى أنها كانت تعاف بشكل خاص الشباب الشقر، الذين لم يتمكن أي منهم من الحصول على نظرة منها، ولا أي كلمة. كانت تصرفها من

Twitter: @ketab_n

الوضوح فلم يفت على أبيها، الذي لم يقاوم الرغبة في توبيخها على ذلك، من باب العقل والحكمة. اكتفت ألفونسين بالرد بابتسامة مبهمة. أما أمها، فهزت كتفيها تأففاً، وقالت لزوجها إنه لا يفهم الأمور.

حاججها الرجل الممتاز بالقول:

– لماذا إذن تتصرف ابنتي على ذلك النحو المتكلف؟ لماذا تبدي ذلك التعالي والتكبر؟

– يا أبتِ، لا تحدثني عن الشقر. أنا لا أطيقهم.

– أي سوء فعلوه بك؟ أنا بنفسي كنت أشقر في شبابي. ويمكنني أن أؤكد، من دون تباهٍ، أنني لم أكن أقل من غيري منزلة.

عقبت السيدة موران، وهي تحس بالحرج:

– آه! ... كنتَ بالأحرى أشقر ذا شعر ضارب إلى البني. السبب، يا زوجي العزيز، هو أن ألفونسين، وهي ترقص قبل بعض الوقت، تمزق ثوبها الجميل من قماش الموسلين الإنجليزي بسبب رعونة شاب أشقر، سخر منها فوق ذلك وضحك. وقبل مدة، وهي

Twitter: @ketab_n

تنزل سلالم مسرح «لامبيغو»، تلقت على ظهرها أشقر أبله آخر، تعثر فوقع عليها، فأخافها إلى درجة أن الطفلة المسكينة ظنت أنه كان أحد المجرمين قطاع الطرق في المسرحية، أراد الإجهاز عليها.

لم يقاوم موران الرغبة بالضحك من تعليلات زوجته وتفسيراتها. أصرَّ على رأيه، مؤكداً أنه لا ينبغي إعارة أهمية زائدة لأحداث متفرقة وليدة الصدفة، وأن من الحماقة أن تكون لفتاة تفضيلات مسبقة لمصلحة فئة على حساب أخرى.

سرعان ما أقرَّت ألفونسين بصحة ذلك الكلام. إذ أدركت أن فتيان طبقتها، وفتياتها، كانوا ينظرون إليها كمجرد حمقاء مدللة من والديها أكثر من اللزوم. ولم يبادر أي شاب إلى مغازلتها، ولا حتى إبداء نوع من المجاملة. وانتظرت جزافاً الشابين الأسمرين اللذين تنبأت العرافة بظهورهما في حياتها. فعادت مع أمها لاستشارتها. أجرت الساحرة اللعبة الكبرى، الغنية بالمعلومات والتنبؤات والاستنتاجات، مكررة إياها ثلاث مرات متتالية. وبعدما أنهت الاستحضارات اللازمة كافة، وجدت أن ورقة الملكة لم تعد محاطة بورقتي الفارس السوداوين كلتيهما، إنما إلى جانبها فقط ورقة الفارس بعلامة «بستوني»، ومن الجانب الآخر ورقة الملكة بعلامة «سباتي»، ما يرمز قطعاً إلى السيدة موران.

Twitter: @ketab_n

فصرخت بتصنع واضح:

– أخيراً، تبددت الظلال، وعمل السحر عمله وتجلت الحقيقة! لم يكن الفارس بعلامة «بستوني» سوى دخيل. لكن رقابة الأم الحنون، وصرامتها، أرغمته على الانصراف، وحلت محله. لم يتبق سوى ذلك الفارس الجذاب والوفي، فارس علامة «سباتي».

سألتها ألفونسين بلهفة:

– ومن هو؟

– انتظري يا صغيرتي العزيزة، انتظري. عليَّ أن أستخير أكثر. أجل... كلا... قطعاً... مع ذلك... أجل، هو كذلك. خطيبك، يا صغيرتي، طالب في الجراحة. كلا، كلا، بل هو حامل شهادة البكالوريا، وسيصبح محامياً عما قريب. إنه داكن الشعر ووسيم، في سن 23 عاماً. عيناه زرقاوان، وشعره مقصَّب، يلتقي تحت حنكه بسالفيه. لقد رآكِ في قاعة الحفلات في «بلڤيل»، حيث كانت فرقة تعزف. وهناك، في ذلك المكان تحديداً، قرر فارس الـ«سباتي»، أعني حامل البكالوريا الشاب، وهو ابن أسرة غنية، هناك قرر في قرارة نفسه أن يتزوجك. هذه الورقة، تسعة بعلامة

Twitter: @ketab_n

«بستوني»، وهذه الأخرى، آس الـ«سباتي»، تشيران إلى بعض العقبات من جانب أسرته، ومعارضتها الزواج. لكن هذه الورقة، تسعة بعلامة القلب، تعني أنه سيفرض رأيه، وسيقترن بك.

طبعاً، توجب أن تُكافأ نبوءة عظيمة كتلك بالقدر الذي تستأهل. والمغرورة الفتية، التي عظمت قناعتها بالمستقبل الزاهر المخبأ لها، باتت أكثر تعالياً وازدراءً في سلوكها تجاه العمال الشباب أو أولاد الحرفيين ممن كان من شأنهم التقدم لطلب يدها. انتظرت قدوم حامل البكالوريا الشاب. وبما أن الانتظار طال، من دون جدوى، عادت لكي تستشير السيدة ألبير، التي فتحت الأوراق مجدداً وفكت رموزها. ادَّعت، في هذه المرة، أن عريس المستقبل كان لا يزال يقارع عائلته، ساعياً إلى تخطي العقبات والتغلب على العراقيل، وأنه، قريباً، سيأتي ويركع أمام قدمي ألفونسين، ملتمساً أن ترضى به بعلاً.

مضت شهور، والانتظار القاسي لم ينته. أخيراً، تمَّ كشف احتيال السيدة ألبير. فساحبة الورق عكرت صفو الحياة ودسَّت الاضطراب والشك لدى الكثير من الأزواج والزوجات، وأقعدت على الحديد أسراً بأكملها. لقن هربها درساً لكل من سعوا إلى كشف أسرار القدرة الإلهية، غير القابلة للكشف.

Twitter: @ketab_n

شفيت السيدة موران نهائياً من الحاجة إلى معرفة طالعها مسبقاً، أحسناً كان أم سيئاً. وتمكنت، بتدبيرها وتقتيرها وحرمان نفسها، من تعويض النقص الذي كان تفاقم في خزينة البيت.

أما ألفونسين، التي أفاقت من أوهامها، فسارعت إلى الاقتران بحرفي بسيط، سعدت معه سعادة كبيرة من دون اللجوء إلى أي شعوذة تذكر. وفي حي «فوبور دو تامپل»، ما يزال الخلق، ليومنا هذا، يضربون بالسيدة ألبير المثل في الحديث عن دخيل يدس نفسه في أسرار بيوت الناس، ويجرؤ على الوعد باسم الخالق، والوعيد باسم إبليس، باختصار أي نصاب دنيء يتاجر بثقة السذج به، ويضحك سراً من بلاهة من يقعون في شباكه.

Twitter: @ketab_n

الرّجل المكسورة

يتحلى الكادحون بصفات كان ليزهو بها ويفخر أبناء المراتب العليا من المجتمع. لكنها لا تجد الثناء الذي يستحقه عمل الإحسان إلا بروح مشوبة بعدم اكتراث ساذج، تنصب على الظن بأن من غير اللائق امتداح عمل يعدُّ من الواجبات المدنية الإلزامية، ومشاركة لابد منها بين قوم يحتاج أفراده إلى بعضهم بعضاً.

كان جاك بيفور بائع ماء منحدرة أصوله من منطقة «أوڤيرن»، في وسط فرنسا، يسكن مع زوجته وأولادهما الخمسة في شقة في الطابق الأعلى من مبنى مطل على شارع «آرجنتاي»، في باريس. حظي هناك بسمعة عالية كرجل خدوم وطيب، ورب أسرة بار. كان يمضي جل النهار ساحباً برميل الماء، ويصعد ما مجموعه 80 طابقاً يومياً، حاملاً في كل مرة دلوي ماء اثنين مليئين، لكي يمون زبائنه الكثيرين، قبل أن يعود إلى البيت متعرقاً ومرهقاً. لكن، علي حين غرة، كان ينسى شقاءه بفضل وجه زوجته البشوش،

Twitter: @ketab_n

التي تسارع إلى تحضير وجبة لذيذة له، ومداعبات أطفاله الحنونة، ومنظر الكنز الصغير الذي جمعه بكده اليومي وجهده الجهيد، فيراه يكبر قليلاً يوماً إثر يوم. حينذاك، كان يشعر بسعادة غامرة لا توصف، فيحدث نفسه قائلاً:

– أنا سند أسرتي الوحيد. زوجتي الرائعة، التي أسعدها، تجازيني خير جزاء بعنايتها ورعايتها وحنانها واقتصادها. بعبارة أخرى، أعيش في بحبوحة متواضعة، وأُصنَّف في خانة الرجال النزهاء في الحي...

كانت تلك الأفكار تثلج صدر جاك، وتجلب إليه تلك القناعة الذاتية، تلك الكرامة الرجولية الحقيقية التي طالما يتجاهلها مَن حالفهم الحظ فبلغوا الجاه والنعمة، وهم أولئك أنفسهم الذين يأتي إليهم جاك، وهو يدندن أغاني شعبية من منطقته الأصلية، لكي يملأ بالماء خزاناتهم ونافوراتهم. فالقدرة الإلهية ترعى كل طبقة من طبقات المجتمع، وتهبها ما يمتعها ويسليها ويعوضها عن التعب والكد والنكد.

جاك بيفور، إذن، على الرغم من وضعه كحامل ماء بسيط، كان من بين السعداء على الأرض بما أنه كان راضياً بحاله ومقتنعاً، بالتالي لا يحسد أحداً. لم تنقص سؤددَه ناقصة، وبدا

Twitter: @ketab_n

كل شيء يبشر بأن البهجة ستكون مستدامة، بما أنها قائمة على مواظبة عمله وقوة بدنه وطبيعته الفرِحة. لكن – وا أسفاه! – أحياناً يكفي ظرف واحد، لحظة واحدة، لقلب حياة هادئة ما بعدها من هدوء ودَعَة، ورمي عائلة بأكملها في الهول والشدة.

ففي شتاء قاس، تغطت شوارع باريس بالثلج والجليد لشهرين بأسرهما. وكان باعة الماء المساكين أكثر الكادحين تضرراً، إذ لم يعد بإمكانهم دحرجة براميلهم، إنما توجب عليهم حملها حملاً. وبما أن نهر السين تجمد، لم يعد ثمة مورد آخر غير بعض حنفيات، يقطر منها الماء شحيحاً، فيتهافت عليه أناس كثيرون. توجب بذل جهد أكبر ووقت أطول لتلبية احتياجات الزبائن الأكثر إلحاحاً. تضاعف الجهد اللازم ضعفين، وأكثر، جراء العقبات المتعددة. وتضاءلت الأرباح بشكل يدعو إلى اليأس.

تخلّى جاك بيفور عن استراحته الصباحية الصغيرة. بل، في كل صباح، صارت زوجته الوفية تعهد أولادها مؤقتاً إلى بوابة العمارة، فترافق زوجها العزيز لكي تواسي حزنه وتعينه على خدمة زبائنه، الذين يثقون به ويعولون عليه. كان منظر الثنائي يعمل يداً بيد مؤثراً. وأصبح غير نادر في باريس رؤية نساء يساعدن أزواجهن العاملين في ذلك الشتاء القارس. فالمعركة

Twitter: @ketab_n

كانت تمثل كفاحاً مستميتاً، تفخر فيه الزوجة بإراحة زوجها من عبئه قليلاً، بينما كان الأخير يستنفد قواه كلها بغية الحفاظ على قوى زوجته وتفادي إنهاكها. يا له من التحام يؤدي إلى تعزيز أواصر الزوجية، فيحيل الاقتران مستحيل الذوبان والتفكك، ويجمع كائنين يبدوان وكأنهما كائن واحد!

سحب جاك بيفور وزوجته برميل الماء الثقيل بجهد لا يوصف لكي يصعدا الركن، ذا زاوية الانحدار الكبيرة، بين شارعي «سانت أونوريه» و«فروندور». كانا توقفا لتوهما أمام بيت أحد الزبائن. وكان جاك، الصبور الذي لا يكل من العمل ولا يمل، يتأهب لصعود سلَّم ضيق ومظلم، والدلوان على كتفيه، لتسليم طلبية في الطابق الرابع. في تلك اللحظة، أتت إلى مسمعيه صرخات رعب. التفت، فرأى طفلاً، ابن ست سنوات أو سبع، كان انزلق على الجليد وهو يهمُّ بعبور الشارع، فبات على مقربة من عربة نقل ركاب، جعل حوذيها يحاول جاهداً، لكن سدىً، إيقاف جيادها المنزلقة بسبب انحدار أرضية الشارع.

هبَّ جاك بسرعة البرق، فالتقط الطفل، ووضعه في مأمن. غير أنه هو نفسه، بسبب حمله الدلوين، فقد توازنه، فسقط على أرضية الجادة المغطاة بالثلج، فمرت إحدى عجلات العربة فوق

Twitter: @ketab_n

جسده. جعلت زوجته تعول وتصرخ، فتقاطر المارة وتجمهروا، وحملوا المصاب عاثر البخت إلى حانوت مجاور، فوجدوا أن ساقه اليمنى كسرت في موضعين اثنين.

وبما أن سبب الحادث المنحوس كان نبيلاً، سارع الجميع إلى إغاثة المصاب ومواساة زوجته المرعوبة المصدومة، التي جعلت ترتعد غماً وتنتفض حزناً. أتى صاحب متجر تنجيد بكرسي، فتبرع اثنان من حرفيي الحي بحمل بيفور إلى منزله، في وسط شارع «آرجنتاي». ولحسن الحظ، كان يقطن في الجولر أحد أشهر جراحي باريس. فركض إليه أشخاص كثيرون، ملتمسين عونه. تمكن من جبر ساق المسكين، لكنه أنذره بأنه سيظل مقعداً لما لا يقل عن ستة أسابيع، أو ربما شهرين، لن يتمكن خلالهما من مبارحة فراشه، ولا القيام بحركة تذكر.

صرخ حامل الماء:

– شهرين! شهرين! وزبائني، من سيزودهم بالماء؟

عقبت زوجته، وهي تمسح دموعها:

– لا عليك يا جاك. لا تقلق. وأنا أرافقك، تعلمت عادات الصنعة. سأدفع لكادح بسيط لكي يساعدني على سحب البرميل. وبذلك، بفضل الله، سنبقي على زبائننا.

Twitter: @ketab_n

وهو يلج البيت، سمع الكلام أحد حملة الماء من سكان الحي، اسمه جان پيير، هرع إلى منزل جاك بيفور حالما علم بتفاصيل الحادث الذي طرأ. فصرخ:

– ماذا تقولين يا سيدة؟ إن زوجك مشلول على هذا النحو لأنه استجاب إلى نداء الإنسانية. إذن على الإنسانية أن تغيثه! نحن، فيما بيننا، نعير ونستعير، نَخدِم ونُخدَم. هيا، تمالكي نفسك. توقفي عن البكاء، فهو لا يجدي في شيء. سأكون تحت تصرفكم بعد ساعتين من الآن.

أنهى جان پيير كلامه وانصرف، تاركاً بيفور وزوجته يعلقان على عرضه ويتجادلان. قال لها جاك:

– لا أستبعد أن يساهموا فيما بينهم لكي يساعدوني. سيوجعني أن أقبل عونهم. فنحن غير معتادين على تقبل الصدقات.

حاججته امرأته بالقول:

– وماذا تريد أن نفعل، يا رجل؟ إنهم منا ومثلنا، من أبناء جلدتنا. يمكننا أن نقبل منهم من دون أن نحمرَّ خجلاً. ثم إنه، مثلما قال جان پيير، هي إعارة بعدها استعارة، جميل يُقدَّم ثم يُردُّ.

Twitter: @ketab_n

– إنه موقف محرج، على الرغم من إنني أعنت الكثيرين في حياتي.

– إذن، دعهم يعينوك بدورهم. وبذا، ستكون متكافئاً معهم.

– أجل، يا امرأتي، أجل. مع ذلك، أيقنت أن المرء عندما يعطي، فذلك أفضل له بكثير من أن يأخذ. إنما ينبغي الرضوخ لمشيئة القدر.

ما إن أنهى بيفور كلامه، حتى دخل فجأة فريمون وزوجته، والدا الطفل الذي أنقذه بيفور، الذي اصطحباه معهما. أتيا للإعراب عن بالغ امتنانهما، والإقرار بجانب من المسؤولية في ما حل من مصاب بالمنقذ. قال لهما جاك:

– وماذا عسانا أن نصنع؟ ما حصل قد حصل. رؤية رجلي مكسورة أهون عليَّ من رؤية طفلكما، الغالي عليكما، وقد داسته عجلات العربة تحت ناظريَّ. تعال يا صغيري لكي أقبِّلك، ذلك سيبعث البهجة عندي.

التمست أم الطفل قائلة:

Twitter: @ketab_n

- آمل أن تسمح لي زوجتك بالاعتناء بعلاجك أثناء غيابها. نحن مجرد أناس بسطاء، نبيع الفواكه والخضار، وتجارتنا حديثة العهد. وما عندنا الكثير لكي نهبه. لكننا طيبو القلب، ولن ننسى فضلك قط.

استطرد فريمون، زوجها، وهو يشدُّ بقوة على إحدى يدي جاك بيفور:

- آمل من جانبي موافقتك على أن نتقاسم ما أربحه من مبيعاتي يومياً، إلى أن تتمكن مجدداً من السير على رجليك واستعادة العمل، فنكون متكافئين، ونرد الجميل. أنا وزوجتي، سنضاعف الجهد والكد.

ردَّ جاك بيفور:

- يا عيب الشؤم! من هذا الذي يفكر في أنني من النوع الذي يستكين على الآخرين ويأكل ثمرة عرق جبينهم وسهرهم؟ حاشاني الله. سأشفى، ولله الحمد. ولحين ذلك، يكفينا ما جمعناه، أنا وجانيت زوجتي، على مدى تسع سنوات. حقاً، في مثل هذه الحالات، عندما يصفعنا الزمن، نفهم قيمة التوفير. كل ما يشغل فكري هو الخوف

Twitter: @ketab_n

من خسارة زبائني. الكل يحرص على عاداته والإبقاء على معارفه ورَبعه.

وهنا، ظهر جان پيير مجدداً، برفقة عدد من زملائه، كل منهم يحمل دلويه من الماء، لاهثاً بعد صعود الطوابق الخمسة وصولاً إلى شقة بيفور، ذات الجدران المائلة بما أنها شقة الطابق الأخير. صرح متحدث عن المجموعة:

– نحن أتينا وفداً إليك عن مجموع حملة الماء في هذه الدائرة من باريس. جئنا لكي نبلغك بأن كل واحد منا، منذ صباح الغد، سيزود زبائنك تباعاً. أنا سأبدأ غداً، إذ اختارتني سحبة الأسماء بالقرعة لكي أكون الأول. وهذا من حسن حظي ودواعي سروري. وبعد غد، يأتي دور جيروم، ومن بعده باستيان... وهكذا دواليك، كل منا بدوره، لمدة شهر. فعددنا ثلاثون. وبعد انتهاء المدة، سنجدد التناوب إلى أن تشفى وتستعيد العافية. بالنسبة إلينا، لن يمثل الأمر سوى يومي عمل أو ثلاثة، سنأتيك بدرِّها كله بكل وفاء، في كل مساء، كن على ثقة. لن يجرؤ أي منا على اخذ زبون واحد من زميل أنقذ حياة طفل. نحن نعرف أن الجالية القادمة من مقاطعة «أوڤيرن» تحرص كثيراً على سمعتها المهنية في باريس، ولن تقبل بأن أحد أفرادها، لأنه وقع ضحية

Twitter: @ketab_n

نداء القلب الإنساني واستجاب لدواعي الشهامة والتفاني... أنه... يعني... أقصد... آه! لم أعد أعرف ما عساي أن أقول... لكن ذلك لا يهم: صافحني يا جاك، واعتمد علينا حتى تتماثل إلى الشفاء التام.

حاول بيفور الرد. إلا أن تأثره العميق حال، للحظات، دون أن يقدر على التفوه ببنت شفة. فجاء جوابه الوحيد في صورة مصافحة حارَّة طويلة، بيديه كلتيهما. ولما استعاد أخيراً القدرة على الكلام، قال:

– هذا عهدي بأبناء جبال «أوڤيرن» الشهام. أقبل. أجل، أقبل بكل فخر، ما تعرضونه عليَّ بتلك الصراحة وذلك النبل. إنه، بالنسبة إليكم، مجرد تأدية واجب عائلي.

علق جان پيير:

– إذن، إلى اللقاء غداً. أعطني قائمة مضبوطة بزبائنك، وعناوينهم، وسيحصل كل منهم على الخدمة المطلوبة، في الوقت المطلوب. خذها منا وعداً.

أضاف المندوبون الآخرون:

Twitter: @ketab_n

– إلى اللقاء، جاك. تجلّد. كل مساء، سيزورك واحد منا. ويوم يسمح لك الطبيب، سنرفع معاً نخب صحتك، ونصدح جميعاً بأغنيتنا الشعبية «تحيا أوڤيرن».

طوال فترة رقود بيفور في الفراش، التي دامت زهاء ستة أسابيع، ثمة من أسدوا خدماته بدلاً منه، بالتمام والكمال. وكل واحد من زبائنه، بعدما أحيط علماً بمردّ ما تعرض إليه، أصبح متمسكاً به أكثر من ذي مضى. على الرغم من ذلك، فإن حامل الماء، الذي كان اعتاد على العمل والنشاط والجهد البدني، عانى كثيراً من الخمول المفروض عليه. فأدنى حركة كان من شأنها إعطاب الجهاز المركب على موضع إصابته، بالتالي تأخير شفائه أكثر. لم يسمح له سوى برفع نفسه قليلاً، ببطء وببالغ الحذر، بوساطة حبل ثبت في السقف تثبيتاً محكماً، مع توخي عدم تعريض رجله المكسورة إلى أي رجة.

في تلك الغضون، عكفت زوجته على رعايته، وحرص أولاده على الإحاطة به على الدوام، وتسليته بعنايتهم ومداعباتهم، وثرثرتهم البريئة. من بينهم، بشكل خاص، صغيرته نينيت، التي كان يحبها حباً جماً. كانت هذه تظهر له من مشاعر الود والعناية ما يفوق سنها بكثير، ملازمة السهر عليه وهي تجلس

Twitter: @ketab_n

على كرسي قرب سريره. وبما أنها أجادت القراءة مبكراً جداً، كانت تتلو عليه قراءات من كتب ممتعة ومفيدة، يعيرها كل ممن والدها بالمعمودية وصاحب مكتبة قريبة، ذائعة الصيت وقتها. كما لم يمض يوم من دون زيارة پروسپير الصغير، الطفل الذي أنقذه جاك بيفور على حساب ساقه. كان يأتي لكي يسلم على منقذه، ويقدم له أزهاراً وفواكه طازجة من حانوت والديه المتواضع، قبل أن يلتحق بأولاد البيت ويلعب معهم.

في كل مساء، مع مغيب الشمس، كان زميل بيفور المكلف بأداء عمله لذلك اليوم يأتي لزيارته، وتسليمه نقود العمل لحد الفلس، ثم يتحدثان عن أخبار ذلك اليوم، ونوادره وطرائفه، وعن أبناء جالية سكان «أوڤيرن» الواصلين حديثاً إلى باريس، والمسجَّلين في مجلس نقابة بائعي الماء. كان ذلك التسجيل يؤمن لهم وسائل لإعانتهم وإيجاد أعمال لهم، فضلاً عن تنظيم مظاهر التعاون والتضامن في حال وقوع طارئ لأحدهم، مثلما حصل لجاك بيفور، لتجنيبه الرقود في مشفى. عند أولئك الجبليين الطيبين، طالما شكل ذلك التعاضد عهداً ينبغي الالتزام به.

أخيراً، أتيح لجاك بيفور الانتقال من سريره إلى كرسي استرخاء طويل، أعاره أحد منجدي الحي. في تلك المناسبة، حضر زميله

Twitter: @ketab_n

الخفير لذلك اليوم، وفريمون، بائع الفواكه والخضار، وعدد من الجيران، لكي يسهموا في رفع بيفور للمرة الأولى من سريره، ووضعه على الكرسي، ما تطلب حذراً شديداً. عكفت جانيت على تثبيت رأس زوجها بين ذراعيها، وعلى صدرها، فبللته بدموع الفرح. الصغيرة نينيت والطفل پروسپير كانا يحومان حول الباقين، سكرانين سكراً بريئاً من البهجة. أما حامل الماء، فهزه المنظر المؤثر، وجعل يصافح هذا ويعصر يدي ذاك على قلبه، ويربّت على كتفي آخر. وجد نفسه وقد نقل إلى الكرسي من دون أي هفوة، مثلما كان الدكتور أوصى به. وُضع الكرسي أمام شباك، فتمكن بيفور من تنشق الهواء السليم المنعش. بدأ يستعيد قواه تدريجياً، وأمله يكبر يوماً بعد يوم في القدرة، عما قريب، على استعادة العمل وسحب البرميل.

ثمَّ حل اليوم المشهود: تمكن جاك من الوقوف من الكرسي، مستعيناً بعكازتين اثنتين، فدار حول الغرفة، وصغيرته نينيت، برفقة پروسپير، تحرسه وتسند خطاه، التي كانت ما تزال مترددة ومترنحة. لاحقاً، بدأ يسير وحده، مستعيناً بعصاً وحسب، ثم تمكن من نزول الطوابق الخمسة، وذهب لكي يستريح على مصطبة حجرية في حدائق «تويلري». وبعد ثلاثة أسابيع، أهلَّ

Twitter: @ketab_n

اليوم السعيد، يوم العودة إلى العمل. عند بسطاء القوم مثلما عند كبارهم، ثمة أيام تتسمُّ ببهجة لا توصف، وسعادة تعيي الفصاحة. جاك، الذي كلفت نقاهته كلاً من زملائه ثلاثة أيام عمل، أراد أن يشكل يوم شفائه عيداً عائلياً يعرب لهم أثناءه عن امتنانه.

هكذا، اتفق مع صاحب مطعم في الحي، كان أحد الزبائن الذين يزودهم بالماء، على تحضير وجبة لأربعين شخصاً في أكبر قاعات المطعم، إنما من دون فخفخة وكماليات زائدة، لقاء 3 فرنكات لكل نفر. تقرر أن تجمع المأدبة جاك بيفور وزوجته جانيت، وأولادهما، وفريمون، بائع الفواكه، وزوجته وابنهما بروسبير، والثلاثين زميلاً باعة الماء، الذين أتاح تفانيهم وكرمهم لمواطنهم جاك الحفاظ على زبائنه، والمنجد، الذي لم يقبل فلساً لقاء إعارة كرسي الاسترخاء، وأخيراً الدكتور، الذي أصلح الرجل المكسورة من دون أي مقابل.

ذهب جاك وجانيت، بنفسيهما، إلى الطبيب لدعوته إلى تشريف الحفل بحضوره. قبل الرجل الشهير بالدعوة، وعدَّ حضوره واجباً، وهو الذي كان يداوي الفقير بالقدر نفسه من الإخلاص والبذل الذي كان يبديه في مداواة الموسر. كان على

Twitter: @ketab_n

دراية مسبقة بأنه سيجد، في مأدبة قوم «أوڤيرن»، قدراً كبيراً من الشهامة والعواطف الصادقة المعروفين بها، وبمظاهر الحبور البسيط والطيبة العميقة المتسمين بها، ما كان يساوي، في عينيه كمراقب للبشر، حفلات الموسرين الباذخة، وسلوكهم المدروس أثناءها.

في صباح يوم المأدبة، حاول بيفور سحب برميله للمرة الأولى منذ ثلاثة أشهر برمتها. وكان قبلها جرب بضع مرات حمل دلوي ماء، والسير بهما، فلم يؤثر ذلك على ساقه بتاتاً. كان استعجاله لحظة العودة إلى العمل عظيماً، وفخره بوشوك حلولها بالغاً، لا يضاهيه حتى زهو جواد عدَّاء أصيل عندما يمتطي صهوته عاهل يبجله شعبه. على الرغم من ذلك، كان وعد الطبيب وزوجته بعدم تعبئة برميله سوى إلى النصف، بغية التعود درجة فدرجة على الحمل الثقيل الذي كان عليه جرُّه. طرق أولاً أبواب زبائنه في الحي نفسه، فرحبوا به بحرارة. ثم سار في شارع «سانت أونوريه»، حيث لقي ترحيباً وتهنئة مماثلين. بعد ذلك، عرج على شارع «فروندور»، فخفق قلبه بشدة حال لحظ المكان الذي انكسرت فيه رجله.

وبما أن زاوية صعود الشارع قوية، همَّ بمضاعفة الجهد لكي يتمكن من سحب عربته الصغيرة لغاية التقاطع مع شار «سانت

Twitter: @ketab_n

آن». لكنه، وهو يسحب، وجدها أخف من أي وقت مضى. فكر مع نفسه، مبتسماً:

– ماذا؟ أهي ذكرى إنقاذ ذلك الطفل المسكين ما ينعشني ويرفع قواي بحيث يبدو أن برميلي هو الذي يتبعني بمعجزة؟

لكن الوهم بدا له أكبر من أن يكون حقيقة. إذ خفَّ حِمله إلى درجة أنه ظن بأن البرميل ثقب في مكان ما، فتسرب منه الماء. توقف فجأة، والتفت. فرأى بائع الفواكه فريمون، مع ابنه الصغير پروسپير، وهما يدفعان العربة من خلف بكل ما أوتيا به من قوة. فبعدما لحظا حامل الماء يمر أمام الحانوت، هرعا بكل عفوية، وبشكل متزامن، لمساعدة ذلك الرجل النبيل على إيصال حمله الثقيل حتى قمة الشارع ذي زاوية الانحدار العالية.

ساءلهما بيفور:

– ماذا تفعلان؟

أجاب فريمون:

– نسد الدَّين. بالأحرى نحاول أن نسد الدين. فمعك، من المستحيل سده.

Twitter: @ketab_n

أضاف الطفل پروسپير:

– كن متأكداً من أنك لن تمرَّ قرب دكاننا من دون أن آتي خلف العربة لعونك. صحيح أنني مازلت صغيراً لكي أخفف عبئك بقدر ما أتمنى، لكن أدعو الله أن يهبني القوة لكي أتمكن من رد جميلك.

احتضن بيفور الطفل بين ذراعيه، وصافح أباه بحرارة، وابتعد مذكراً إياهما بموعد المأدبة ذلك المساء.

في حدود السادسة مساء، بعد انتهاء كد النهار، وصل رفاق جاك الثلاثون، مرتدين حلة الأعياد، إلى المطعم المقصود، وأيضاً المنجد الذي أعار كرسي الاسترخاء. كان في انتظارهم حامل الماء وزوجته وأولادهما، والصغير پروسپير ووالداه. ثم أطل الطبيب الجراح، الذي قوبل بمظاهر الاحتفاء وعبارات الاستحسان والتقدير والاعتراف بالجميل، فجلس بين جاك بيفور وزوجته. أخذ الجميع أماكنهم حول طاولة كبيرة، تربعت في وسطها سلة زهور جلبتها معها زوجة بائع الفواكه. وقدم عشاء من أكلات جيدة، إنما من دون كماليات. اقترحت جانيت عدم تجاوز ثلاثة فرنكات للشخص. ففرحتها بإكرام مواطني زوجها لم تنسِها أن عندها أسرة من خمسة أولاد، وأن الاقتصاد واجب.

Twitter: @ketab_n

لحظات الصمت الأولى، التي تولدها دائماً الشهية العالية، حلت محلها تدريجياً تعبيرات فرح جبلي «أوڤيرن» الأشداء، وحبورهم بالالتقاء في تلك المناسبة. وتمّ رفع أنخاب، بفرح وحيوية، في صحة شفاء جاك، الذي تأثر تأثراً صادقاً، فأعرب عن بالغ امتنانه ووده لمواطنيه لموقفهم النبيل. ثم وقف الجميع وحيوا الجراح الشهم، الذي لا تقدر خدماته بثمن بالنسبة إلى فقراء الحي، ومنها العلاج المجاني لبائع الماء.

وقف الطبيب هو أيضاً، فأعلن:

– أصدقائي الطيبين، خلال الخدمة التالية، سأرد على نخبكم، الذي دخل إلى أعماق قلبي.

نظر بيفور وزوجته إلى بعضهما بعض بعيون الدهشة والحيرة. فهما كانا طلبا خدمة واحدة، تلك التي قدمت تواً. ارتسمت علامات القلق على وجهيهما عندما رأيا خدمة ثانية تصل، مؤلفة من أكلات راقية، والأنكى: لحظا النادلين يصبون شيئاً من نبيذ فاخر من منطقتي بوردو وبورغوين، ويفتحون عدة زجاجات شمبانيا، محدثين فرقعة. شُده الجميع، وظل بيفور غير مصدق عينيه وأذنيه، مفكراً بأن من المستحيل الحصول على ذلك كله لقاء ثلاثة فرنكات للنفر. أما جانيت، فحدثت نفسها قائلة:

Twitter: @ketab_n

«يستحيل أن يكون زوجي خدعني فطلب وجبة أغلى بكثير من سقف ثلاثة فرنكات». لحظة تأهبت للقيام من مكانها والذهاب للاستفسار من صاحب المطعم، نهض الطبيب، الذي تبين أنه يبرع في الضيافة بقدر براعته في الجراحة. فخطب بالحضور، وكأس الشمبانيا في يده:

– يا أبناء «أوڤيرن» الأبرار، أراد رفيقكم التعبير لكم عن شكره، الذي تستحقونه أحسن استحقاق. الجزء الأول من هذه الوليمة دَين عليه، واجب سداده مقدس في عينيه. وأنا أحترم إرادته. لكن ما فعلتموه من أجله يستأهل تقديراً عظيماً من كل من يقدر الأمور حق قدرها، ويرى قيم الرجال مثلما هي. لذا، أردت أن أعبر بدوري عن مودتي لكم، وفائق تقديري. أستميحكم إذن أن تتقبلوا مني هذه الخدمة الثانية تعبيراً عما ذكرته من مشاعر التقدير. ما بذلتموه من تعاضد ينبغي أن يُعرف ويشاع. أرفع باحترام نخب سكان «أوڤيرن» الطيبين، ونخب حاملي الماء جميعاً، الذين لا يقبلون بتاتاً أن يُزج أحد زملائهم في مصحة باريسية. آمل ألا تنسوا بأنني سأكون دوماً على أهبة الاستعداد لمساعدتكم ومعالجتكم. واعتبروني، منذ هذه اللحظة، فرداً من أسرتكم الكبيرة.

Twitter: @ketab_n

من العسير وصف ما ولدته تلك الكلمات الرقيقة من فرحة مُسكرة. حُفر كلام الطبيب عميقاً في ذاكرات الحاضرين كلهم، الذين نقلوها بدورهم إلى مواطنيهم وأقرانهم. ومنذ تلك الليلة، لا يحصل حادث عند أبناء الشعب البسطاء إلا ويأتي على الألسن ذكر حكاية الرجل المكسورة، وهي قصة حقيقية.

Twitter: @ketab_n

صندوق التوفير

تشهد فرنسا كل يوم نشوء مؤسسات مفيدة، تمتاز بالقدرة على الابتكار. هذه تُعدُّ لمصانعنا طرقاً وخططاً للاقتصاد والتطور، وتلك تزيد رقعة الأراضي الزراعية، وأخرى تشجع الفنون وكل ما يعكس تقدم الفكر البشري وتحسين الحضارة.

لكن، لا شيء أكثر من صندوق التوفير يُسهم إما في تشذيب الأخلاق، أو في تأمين حياة أفضل لأبناء الطبقات الكادحة. فالمؤسسة، التي تحظى بالشرف التجاري وإدارة كبار الماليين الأكفاء، تتيح لأبناء الشعب أن يودِعوا، بكل أمان وائتمان، ثمرة جهدهم وما يزيد من نعمة الحاضر، من أجل ضمان مستقبل سعيد. يومياً، تسهم المؤسسة الموقرة في تجنيب الخلق مصاريف الغرور وكلفة الشرود، وإرساء عادة الحساب الذاتي الحميدة، وتشجيع ممارسة التوفير المفيدة. فهي تقدم مورداً دائم التوافر في حال أي مصاب مباغت، وتولد نشوة القدرة على إغاثة قريب غالٍ أو صاحب عزيز يتألم. بعبارة أخرى، تشكل طوافة

Twitter: @ketab_n

الإنقاذ لشرف العائلات وراحة بالها. بعد تلك الصورة الوفية، لن يعجب أحد عندما يعلم بأن على رأس مؤسسيها، بزغ اسم «لا روشفوكو»[1] الجميل، الجدير بشرف التبجيل من الشعب، والاعتراف من الدولة.

صندوق التوفير هذا، الذي اتخذ مقراً في شارع «لا ڤريير»، قريباً من البنك المركزي الفرنسي، كان يفتح أيام الآحاد، من التاسعة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر، بإدارة مفوض إداري. وكان بالإمكان إيداع مبالغ تتراوح من فرنك واحد إلى 50 فرنكاً[2]. وتوظف الإيداعات حالاً لشراء استثمارات من الدولة، يجرى حساب فوائدها، ودفعها، كل ستة أشهر، من دون أن يكلف ذلك أصحاب التوفير فلساً واحداً. فالعمل مجاني، ينجزه موظفو البنك المركزي («بانك دو فرانس»)، الذين يتسلمون ما تودعه طبقات الشعب المختلفة، ويديرون تلك الأموال تحت رعاية شخصية ذات سمعة عالية، إما من حيث المكانة الإدارية والمنزلة، أو من حيث سعة الثروة.

(1) المقصود فرانسوا دو لا روشفوكو F. De La Rochefoucauld (1613–1680)، الذي كان كاتباً فرنسياً معروفاً في القرن السابع عشر، وحكيماً شهيراً، يعد كتاب «الحكم» أشهر مؤلفاته (المترجم).

(2) تغير النظام الداخلي منذ الفترة التي دارت فيها أحداث حكايتنا هذه، ورفع سقف الإيداع إلى 300 فرنك، بدلاً من 50. كما تم، منذ ذلك الوقت، فتح فروع لصندوق التوفير في معظم أحياء باريس، وفي غالبية المحافظات (المؤلف).

Twitter: @ketab_n

لا شيء يثير فضول المراقب ومدوِّن أخلاق الأمم، واهتمامهما، أكثر من ذلك المنظر العجيب، المتجدد دوماً، الذي يريان فيه العمال والحرفيين يأتون لإيداع ما استقطعوه من ملذاتهم ومتعهم، بل وحتى من احتياجاتهم أحياناً. هنا، بوَّاب عجوز يحرص، كل شهر، على تسمين كنزه الصغير لكي يكون في مأمن إن أصابه مصاب، فلا يموت في دار عجزة؛ وهناك، عاملة بسيطة تجمع بالقطارة مَهراً مستوراً تتمنى أن يؤمن لها لاحقاً اختيار العريس الذي ترغب فيه. هنا، أرملة عجوز ثرية من وسط الأشراف، تأتي لإيداع بذرة في أمل التبرع يوماً لإنشاء مؤسسة خيرية من أجل تمجيد اسمها وتشريف لقب عائلتها؛ وهناك، عامل بسيط، منحدر من منطقة ساڤوا الجبلية، قرب سويسرا، يأتي فيفتح صرته المتواضعة، وينهل منها ما يأمل أن يؤلف يوماً مبلغاً يهديه لأمه المسكينة، سنداً لشيخوختها. وإلى جانب صاحبنا، يصل متأنق، فيدفع الحشد، حاملاً بما ربحه في القمار عشية ذلك اليوم، ومقسماً مع نفسه يميناً حقاً أنه سيكبح جماح ولعه القاتل باللعب بدءً من ذلك اليوم.

كل منهم يُعبِّر، بما يرتسم على محياه ويخرج من شفتيه من كلام، عن رغبته العارمة بتكوين رأسمال. عندما يرى المرء تلك

Twitter: @ketab_n

الحشود من الناس تتقاطر، كلٌّ ممسكاً بالنقود بيد وبدفتر تسجيل الإيداعات باليد الأخرى، يخيل إليه أنه يرى سرب نحلات عاملات، تأتي كل منها برحيق النهار فتأتمنه في صندوق الخلية المشترك، مرتاحة من حصيلة اليوم، ومبتهجة من قناعتها بجدوى عملها خلاله.

من بين الأشخاص الذين ندر أن يفوتوا يوم أحد واحد من دون القدوم لتعزيز رأسمالهم المودع في صندوق التوفير، هناك المدعو لوران، الذي كان يمارس صنعة نقاش على المعادن. كان وجهه يوحي بشخصية ماكرة وفطِنة، وملابسه المهلهلة المرقعة تشير إلى ميل نحو الاقتصاد والتقتير، بل تبعث حتى على الشك بأنه بخيل. استحصل دفترَي توفير اثنين، منفصلين، كان يجلبهما كليهما، فيضع على كل من الحسابين، بالتناوب، مبالغ تارة تافهة وتارة لا يستهان بها. كانت تبدو عليه لهفة واضحة وطمع ملحوظ، ينمان عن تعطش لاهث لجمع الثروة.

وبما أن جَمع الزبائن المنتظمين غفير، كان من الأولى الذهاب في الصباح الباكر إلى الصندوق لضمان الحصول على دور. كان لوران يجلب، مخبئاً في جيبه، غداءه المكون من قطعة خبز من دقيق السلت، يحرص قبل الخروج من بيته على تنقيعها بكأس

Twitter: @ketab_n

شاي. هكذا، تكلفه الوجبة ثلاثة فلوس، عدًّاً ونقداً. وعادة، كان يتعشى بـ15 فلساً، في مطعم ضئيل، كان يشغل فوقه غرفة بالإيجار، لقاء 120 فرنكاً. ويمكن تصور أن أثاثه كان متناسباً في تواضعه مع مصرفه الشحيح. على الرغم من ذلك، كان ينعم بسرير وافر من نوعية جيدة، بشراشف بيضاء نظيفة دوماً. وأيضاً، لم يفُته تعليل النفس، في كل صباح، بكأس شراب جيد.

كان تعجُّب الغير إزاء تقتير لوران، وبؤس مظهره، يزدادان عندما يعلمون أنه أمهر حرفي لدى صاحب ورشة النقش التي يعمل فيها، الواقعة على شارع «سانت أونوريه»، وأنه كان يجني من ستة إلى سبعة فرنكات يومياً، لما يتحلى به من براعة ومهارة وموهبة ودقة وسرعة في الإنجاز، وذلك عدا عما كان يكسبه من إنجاز طلبيات بالقطعة في غرفته الضئيلة. كان الجميع ينتقد نمط حياته. وكانت تلك التعليقات اللاذعة تفرحه لأنها تغطي بحجاب غير قابل للخرق ولعَه العارم بجمع الفلوس، بالتالي تجعله أقل عرضة للوم من جانب أهله وأقاربه.

إذ كان للوران أخت صغرى، عقيلة عامل سابق، رئيس طاقم، اسمه دوهامَل، أصبح لاحقاً جواهرياً في منطقة القصر الملكي. وكان هذا لامعاً ومحباً للاحتفال والتألق والتأنق بقدر

Twitter: @ketab_n

ما كان نسيبه، لوران، شحيحاً وجافاً ومهمل الهندام. حاولت السيدة دوهامَل مراراً أن تدعو إلى بيتها أخاها الأكبر، الذي كان رفيق طفولتها وأول أصدقائها، لكونها أصغر منه باثنتي عشرة سنة. لكنه كان دائم الرفض، متشبثاً بقراراته، ومتمسكاً بأذواقه وأنماطه. لم يشأ قط أن يرى زوج أخته، السيد دوهامَل المغرور، يتأفف من حضوره. فالنقَّاش المتواضع، تحت ملبسه الغامض، كان فخوراً بروحه الاستقلالية، ولم يطق يوماً أن يتعرض إلى أدنى إهانة أو مذلة تذكر.

لم يكن لوران ليلتمس أي شيء من أي أحد. ولم يطلب من أحد أن يُعبِّر له عن أي علامات تقدير، ولا حتى مجرد مظاهر الأدب. كان مرتاحاً في غموضه وانزوائه، لأن من شأنهما تجنيبه التقيد بواجبات مجتمع كان يعافه أصلاً، ويتهرب منه. لذا، لم تكن قدماه تطأ عتبة بيت أخته إلا مرة في السنة، في يوم عيد ميلادها. آنذاك، كان يصل مبكراً في الصباح، حاملاً باقة أزهار بنفسج بقيمة فلسين اثنين، ويدخل من باب الدار الخلفية، فيقبِّل أخته وابنتيها – وكبراهما ابنته بالمعمودية، أي أنه عرَّابها –، ثم يغادر حالاً، ولا يعود سوى بعد عام بأكمله.

Twitter: @ketab_n

من وقت لآخر، كانت الأم وابنتاها يبادرن إلى زيارة خالهما في غرفته في الطابق الأخير من مبنى يقع على شارع «بيرتان پواريه». لكن، في تلك الحالات، كان لازماً تبليغه مسبقاً بموعد الزيارة، وإلا لما كان ليفتح بابه لأحد. في تلك الحالات، كانت السيدة دوهامَل تلاحظ أنه حلق لحيته، ولبس ملبساً لائقاً، فتقبله بحرارة وعواطف أخوية جياشة، كان يردها بالمِثل، ويعانق ابنتي أخته بحنان. في تلك اللحظات، كانت الآصرة العائلية تتغلب. لكن، ما من هدية تذكر، حتى لابنته بالمعمودية، وما من أي عصير يقدَّم للزائرات الثلاث. لم يعجبه الحديث سوى عن الاقتصاد، ولم يتمسك بشيء سوى التشبث بقوقعته الغامضة وانعزاله المبهم.

مضت عشرة أعوام ولوران لم يكفَّ عن تغذية حسابيه في صندوق التوفير بكل ما استطاع من مال. من بين أهله ومعارفه، لم يعرف أحد قط بموضوع حسابيه للتوفير، ولم يشكُّوا حتى في وجودهما. لكن رصيديهما ارتفعا كثيراً، لاسيما وأن الفوائد السنوية كانت تضاف بانتظام. لم يكترث أن الناس ظنوه مولعاً سراً بغواية مجنونة ما، أو مُخجلة، تكلفه آخر فلس مما يتقاضاه من عمله، فترغمه على ذلك العيش المتقشف. بل، في قرارة نفسه،

Twitter: @ketab_n

كان يفرح لتلك الشكوك. بدا مضاعفاً الجهد في العمل، والشح في المصاريف، إلى درجة أن أخته حاولت أن تعطيه بعض ملابس وأغراض صغيرة، ضرورية للحياة. لكنه رفض قاطعاً.

وبينما كان النقّاش الغامض يدّخر سنة بعد سنة، مغالياً في التقتير والضنك، كانت ثروة نسيبه، الجواهري المبذر المحب للبذخ، تتناقص أكثر وأكثر، بسبب إنفاقه الأرعن وميله إلى الاحتفال والمآدب، لكن أيضاً بسبب خسائر تجارية حقيقية واجهها في حانوته. شيئاً فشيئاً، لم يجد نفسه إلا وأضاع رصيده. فأزمع تجربة حظه مع الكمبيالات العمومية، إلى أن أكملت المضاربة بالسندات إفلاسه، وأقعدته على الحديد. اضطر إلى ترك متجره في حي القصر الملكي، وبَيع آنية البيت الفضية، ومجموعة اللوحات الزيتية التي كانت في حوزته. السيدة دوهامَل، بدورها، أرغمت على بيع مجوهراتها. وتم صرف أساتذة التعليم والرقص والعزف على القيثارة والغناء الذين كانوا مكلفين بتربية البنتين.

انتقلت الأسرة إلى شقة صغيرة، في الطابق الرابع من مبنى على شارع «لا پوتري»، وأرغمت على عيش ضيق. جعلت السيدة دوهامَل تقوم بالطبخ، بينما بدأت الصبيتان، فلور

Twitter: @ketab_n

وزيلي، في سن 16 و15 سنة، تتعلمان تنظيف المنزل وتدبيره. في هذه الأثناء، سعى والدهما إلى استغلال علاقاته السابقة في وسط المجوهرات. وكان يحس بالمذلة وهو يطلب ويلتمس. لكن، ما العمل؟ كان لزاماً عليه أن يجرب الحلول كلها من أجل إطعام عائلته.

كان لوران، منذ عهد، يتوقع حلول تلك الطامة. فلم يندهش، بل لم يحزن. بدا وكأنه يتشفى سراً، ويستمتع بدوران الفلك على زوج أخته، الذي بدأ يستقبل نسيبه، النقَّاش البسيط، استقبالاً مختلفاً تماماً عن ذي قبل. لم يعد يتهكم من معطفه المرقع، ولا من قلنسوته الجلدية ذات الوسخ المتراكم، أو بنطلونه من مخمل القطن المتهرئ، أو حذائه المصَلَّح بقطع الحديد. بل جعل يُكثر من «نسيبي العزيز» هنا، و»عزيزي لوران» هناك. بات يزوره كل يوم أحد، ويهنئه على حياته المنزوية وانطوائيته، ويعبر عن إعجابه بمقدرته على الاقتصاد والزهد.

لكن، لم تُجدِ تلك المجاملات في شيء. كان لوران ينصت بوجه ساكن الجوارح، غير آبه، من دون أن يبادر إلى عرض خدماته، وعيناه مسمرتان على القطعة التي بين يديه، متابعاً عمله في النقش عليها، من دون إبداء أي اهتمام آخر، لا مؤنباً

Twitter: @ketab_n

نسيبه ولا مشفقاً عليه، لا معاتباً إياه ولا معرباً عن أسفه لما حلَّ به. لكن، في حضور أخته وابنتيها، كانت شدة عدم مبالاته تقلّ شيئاً ما. هنَّ أيضاً، صرن يأتين لزيارته أكثر من السابق في غرفته في شارع «بيرتان پواريه»، في الطابق الأخير، الذي لم يعدن يتشكّين من علوه، ولا يتذمرن من صعوبة صعود السلالم لبلوغه. كن يقصصن عليه معاناتهن، ويسردن جهود السيد دوهامَل لتخفيفها، إنما هباءً.

وعند الوصول أخيراً إلى لحظة إقرارهن الأليم بأنهن ضحين بكل شيء من أجل الحفاظ على ماء الوجه والسمعة، وأنهن لم يعدن يمتلكن شيئاً غيرها في الحياة، وأنهن بتن مضطرات إلى البقاء بالقبول بأعمال يدوية، كان الخال لوران يضطرب رغماً عنه، على الرغم من كل شيء، فيبدو على محياه أنه يخوض معركة سرية. في أحد أيام نهاية الخريف، لاحظ ابنتي أخته، الكبرى فلور والصغرى زيلي، مرتديتين ملابس بائسة، وهو الذي عهدهما سابقاً تزدانان بأثواب في غاية الأناقة. ساءلهما، فأجابتا أنهما الثوبان الوحيدان اللذان بقيا لديهما لتغطية جسديهما ومواجهة قسوة الشتاء الطارق على الأبواب.

Twitter: @ketab_n

صرخ لوران، وفي صوته نبرة حنان وعاطفة غير معهودة منه:

– هذا لن يحصل. لا وألف لا. لن أطيق رؤية ابنتي أختي، وهما ابنتاي بالمعمودية، تتعرضان للموت برداً، حتى لو كلفني ذلك أن أبيع الغالي والنفيس من القليل مما أملك.

وفعلاً، بعد بضعة أيام تسلمت كل من الصبيتين معطفاً من الجوخ وثوباً من صوف «مرينوس». لم تكن من الألبسة الفاخرة، لكن كافية لكي تستر الأختان بها معالم البؤس وتحتميا من برودة الموسم.

ذلك العطاء، الأول الذي يهبه لوران في حياته، أجج مفاجأة كبرى، وفي الوقت نفسه قوبل بأسمى مشاعر الاعتراف بالجميل، وأصدق عبارات الامتنان، التي دخلت في أعماق قلبه. هكذا، عاش للمرة الأولى سعادة أن يكون نافعاً للغير. لذا، كرر مرات قليلة تقديم بعض هدايا متواضعة، مع توخي الاقتصاد في اقتنائها إلى أقصى حد ممكن. وفي كل مرة، كان يشدد على أنه اشتراها على حساب راحته، وحتى حرمان نفسه من أي متعة. الحق يقال، أقسى حرمان بالنسبة إليه، وأشد مقاساة، كان يتمثل في الاضطرار إلى تقليل ما يودعه في صندوق التوفير. لكنه كان

Twitter: @ketab_n

الثمن لكي يستمر، بكل راحة بال، في رؤية أخته وابنتيها يعانين من بطش الشتاء وذل الفاقة.

والثلاث، من جانبهن، تأثرن كثيراً بمبادرات الخال المُحسن المتواضعة، إذ كن على يقين بأنها كانت من ثمرة كدِّه وتعبه، وعلى حساب راحته. لذا، ضاعفن الجهد في العمل لكي يكن جديرات بتلك الهدايا البسيطة، ولكي يتجنبن إشعار لوران بأنهن يستغللن طيبته. فماضياً، كانت الأم، في فترة اقترانها بالسيد دوهامَل، تعمل في متجر الحواشي المسدلة وهدبات الستائر، يقع في شارع «أو فير». فاستعادت صنعتها السابقة، التي تعلمتها ابنتاها بسرعة، وأتقنتاها، فأصبحتا موضع ثقة أثرى صناعيي العاصمة. كن يبدأن أشغالهن اليدوية مبكراً في الصباح، فلا يتوقفن سوى مساء، عندما يغلبهن النعاس.

هكذا، بعد مضي مدة معينة، باتت السيدة دوهامَل وابنتاها يكسبن 40 فلساً يومياً، لكل منهن الثلاث، ما مجموعه 160 فرنكاً في الشهر. كان هذا مبلغاً كافياً لسد احتياجاتهن الحياتية الضرورية الأساسية، وبشكل خاص تفادي أن يقعن عالة على أي كان. أما الأب دوهامَل، فكان هو أيضاً يجني بعض نقود من وقت لآخر متمثلة بعمولات لقاء عمله كسمسار مجوهرات.

Twitter: @ketab_n

لكن شعوره الخفي بالمذلة، ومقارعته الدفينة لكبريائه، أضعفا قواه وأوهنا صحته.

لذا، سرعان ما ألَمَّ بالسيد دوهامَل داء عضال، مردُّه الضنى والذواء والغم، فقاده إلى مثواه الأخير. قبل وفاته، طالما أحس بالندم – إنما بعد فوات الأوان – على انصياعه السابق للغرور واعتبارات المظاهر، وعصرت قلبَه اللوعة على مصير عائلته، التي لم يترك لها أي مورد آخر غير عملها اليدوي اليومي، وسند نسيبه الضعيف. لكنه علل نفسه بالقول إن خال البنتين، إن لم يفتح صرة نقوده، فأقله سيقدر على دعم الصبيتين فلور وزيلي بالنصح والرأي، والأخذ بيديهما وإرشادهما.

أما الخال لوران، من جانبه، فلم يتخلَّ عن إحاطة نفسه بحجاب الغموض والتكتم. ارتاح كثيراً لتفاني أخته وابنتيها في العمل، وصبرهن ومثابرتهن. وبحجة تعزيز الأواصر العائلية مع الأم المحترمة وابنتيها النجيبتين، عرض أن يكون كسبه وكسبهن ملكاً مشتركاً، مع مشاركته في ثلث مصروف المنزل. وافقت أخته وابنتاها حالاً. فطالما كنَّت السيدة دوهامَل مشاعر التعلق الأخوي الحنون تجاهه، على الرغم من بخله وعدم اكتراثه. فلور وزيلي، هما أيضاً، خصتا خالهما بمشاعر

Twitter: @ketab_n

العطف والتعلق الصادقة، وكانت مستعدتين لإحاطته بالرعاية والعناية عن طيب خاطر.

هكذا، ترك لوران غرفته تحت السطوح في شارع «بيرتان پواريه»، واستأجر شقة صغيرة في شارع «لا پوتري»، في المبنى نفسه الذي تقطن فيه أخته وابنتاها. أبعده ذلك الانتقال قليلاً عن صاحب ورشة النقش، الشهير جداً، الذي كان يعمل لحسابه منذ 20 عاماً. لكنه اتفق معه على الاستمرار في العمل لمصلحته بالقطعة في بيته، نظراً لسنه وبدء تردي حدة بصره. كما زعم أن تلك الطريقة ستعينه على تحمل مسؤولياته الجديدة كرب أسرة إثر وفاة نسيبه.

أسعد اللقاء الجديد المعنيين جميعاً. أسست السيدة دوهامَل وابنتاها ورشة لصنع إكسسوارات الستائر من الأنواع كافة (حاشيات مسدلة أو مخصلة وهدبات، وما إلى ذلك). فارتفعت سمعتهن بسرعة، وصار أشهر حرفيي باريس يلجئون إليهن لتنفيذ طلبياتهم. ومن بينهم، بشكل خاص، تاجر يقع متجره على شارع «أو فير»، كان طاعن السن، ومن دون ذرية، لكن متجره كان ذائع الصيت. اهتمَّ التاجر العجوز بأسرة دوهامَل، وأوكل إليها أهم طلبياته.

Twitter: @ketab_n

في تلك الأثناء، كان لوران منكباً على عمله في النقش، حيث أتاحت له خبرته الطويلة، وكفاءته العالية، إحراز أرباح لا بأس بها. لكنه كان يخفيها قدر المستطاع على العائلة. كان يشغل غرفتين ضئيلتين في الطابق الرابع، لم يكن ينزل منهما سوى في أوقات الوجبات، منصرفاً طوال الوقت إلى العمل. لذا، ظنت الأخت والبنتان أنه كان مرغماً على الكد وبذل الجهد من أجل كسب لقمة العيش. قيضت له تلك الحجة الوهمية مواصلة تكديس المال على راحته. إذ لم يفوت يوم أحد من دون الذهاب مبكراً إلى صندوق التوفير لإيداع ما صمّده خلال الأسبوع.

على الرغم من ذلك، لوحظ أن لوران بدأ يهتمُّ قليلاً بالهندام والمظهر والنظافة. تخلص من معطفه المرقع العتيق، واستبدله بسترة جديدة، من قماش باللون الأزرق الملكي الغامق. وبدلاً من القلنسوة الجلدية ذات الوسخ المتراكم، صار يعتمر قبعة مدورة من نسيج مانع لنفوذ الماء. كما عاف سرواله القديم من المخمل القطني المتهرئ، واقتنى بنطلوناً من الجلد أو نسيج النانكين القطني الأصفر. وحذاؤه، على الرغم من تزايد سُمك نعله، لم يعد مرقعاً بقطع الحديد، كأحذية سكان منطقتي «أوفيرن» و«سافوا».

Twitter: @ketab_n

بعبارة أخرى، جعل لوران، من دون شعوره، يدرك رويداً رويداً خشيته الدفينة من تعريض أخته وابنتيها إلى المذلة. فهو كان يُكنّ لها تلك العواطف الجياشة الهادئة التي لا يوجد مثلها سوى بين أفراد العائلة الواحدة.

في تلك الأثناء، بلغت فلور وزيلي سِنَّي 20 و19 عاماً. على وجهيهما، كانت ترتسم صورة نفسين نبيلتين وقلبين كبيرين، فضلاً عن آثار تربيتهما الراقية الأولى، التي لم تُمحَ. بدأت ورشتهما، مع أمهما، تكبر أهمية وسمعة تجارية. وبات الحرفيون يتبارون للحصول على أعمالهن، ذات النفس الخاص والإتقان التام والإبداع غير النادر. أسهمت سمعة الفتاتين وسلوكهما وكرامتهما، النابعة من تربية حسنة، في زيادة تقدير الناس لهما. كان صاحب متجر الستائر في شارع «أو فير»، العجوز الثري، يأتي لزيارتهما أحياناً، معجباً أيما إعجاب بالآصرة القوية التي تربط بينهما كأختين متكاتفتين ومتعاضدتين، وبالاحترام الحنون الذي تبديانه تجاه أمهما، ورعايتهما المهذبة لخالهما.

كان التاجر يستهوي بشكل خاص، عندما يأتي المساء، ممارسة لعبة الضامة (أو الداما)، ولعبة الدومينو، مع الخال لوران. وسرعان ما رسخت أواصر الصداقة والألفة بينهما، فصارا يتحدثان عن همومهما وطموحاتهما.

Twitter: @ketab_n

في أحد الأيام، أسرَّ التاجر العجوز:

– مثلما تعرفون، ليست لي ذرية. وأنا أنوي اعتزال العمل والاعتكاف في أراض اشتريتها في مقاطعة النورماندي. لذا، أود إيلاء متجري إلى السيدة دوهامَل والآنستين ابنتيها... إذا كن قادرات على تقديم بعض الضمانات.

ردّتَ عليه السيدة دوهامَل:

– عرضك هذا، يا سيدي، يشرفنا ويسعدنا. لكننا نرتزق من شغل أيدينا البسيط. لذا، لم نوفر بعد إلا النزر القليل، بالتالي لا يمكن أن نقدم ضمانات أخرى غير تفانينا وإخلاصنا في العمل وتقوانا ونزاهتنا.

عقبت ابنتها الصغرى، زيلي:

– لو لم يواجه المرحوم والدنا خسائر غير متوقعة، أدت إلى إفلاسه، لكنا اليوم قادرات على تشريف اقتراحك، ما كان سيحقق أعز أمنياتنا.

أضافت الكبرى، فلور، وهي تتنهد:

Twitter: @ketab_n

- لكن هيهات! لا يمكن حتى أن نحلم بذلك. سنخضع لمشيئة القدر، ونظل مجرد عاملات بسيطات.

وهنا، تدخل الخال لوران، واضعاً على الطاولة قطعة «الست نقاط مضاعفة»، أعلى قطعة في لعبة الدومينو. فسأل التاجر الثري:

- بكم تقدر قيمة متجرك؟

- إنها، يا سيدي الكريم، لا تقل عن مئة ألف فرنك. سأوافق إن حصلت على نصف المبلغ نقداً، مع ضمانات للمتبقي...

قال لوران، من دون أن يتوقف في لعب الدومينو:

- إنْ اكتفيت بخمسين ألف فرنك، ستتعامل معك ابنتا أختي.

علقت السيدة دوهامَل:

- إنسَ الأمر، يا أخي العزيز.

استطردت فلور:

- يبدو أن خالي ينوي التندر والتنكيت على حسابنا!

Twitter: @ketab_n

- إنه يحب المزاح، أضافت زيلي. يود أن يهدهدنا بالأحلام المستحيلة التحقيق للترفيه عنا.

اعترض لوران، خافضاً رأسه ومواصلاً لعب الدومينو:

- لا أمزح البتة. فكل منكما تمتلك أكثر من ستة وعشرين ألف فرنك.

- كيف؟ سألت الكبرى.

- ماذا تقصد؟ ألحت الصغرى.

أوضح خالهما:

- أجل. رأيت دفتريكما في صندوق التوفير.

- مازلنا لا نفهم...

- انتظرا قليلاً، وسأقنعكما.

قال تلك الكلمات فنهض حالاً، وهو ينظر مبتسماً إلى ابنتي أخته. صعد إلى غرفته بخطى حثيثة، وعاد منها بمحفظة قديمة، تضم دفترين، الأول باسم فلور دوهامَل، ابنته بالمعمودية، والآخر باسم زيلي دوهامَل. وكل منها يحمل مبلغاً معتبراً،

Twitter: @ketab_n

بضمنه 1325 فرنكاً على شكل «ثلث معزز»[1]، مسجل في سجل المالية الكبير.

لم تصدق الشابتان أعينهما، وخالهما يسلّم كلاً منهما دفترها. والسيدة دوهامَل، بعدما أفاقت من دهشتها، أجهشت بالبكاء ووقعت بين ذراعي أخيها، الذي صرحت له بنبرة ملؤها حنان أخوي ومشاعر صادقة:

– هذا إذن ما يفسر غموضاً لم أكن أفهمه. هذه ثمرة تضحيات كبيرة وحرمان قاس.

ردَّ لوران قائلاً:

– صحيح يا أختي العزيزة. عندما انتبهت إلى أن المرحوم زوجك كان سائراً نحو الإفلاس، لا محالة، بسبب ميله إلى البذخ والفخامة، ومبادراته المشوبة بالتبذير والمجازفة، قررت السعي إلى ضمان مستقبل ما لكن الثلاث. هكذا، من الفرنكات السبعة أو الثمانية التي كنت أجنيها في اليوم، أرغمت نفسي على صرف اثنين فقط. ومنذ 16 عاماً، أو 17، ما فتئت أودع مدخراتي كل أسبوع في صندوق التوفير. وبين رأس المال وفوائده، تمكنت من

(1) في تلك الفترة، كان ثلث الفوائد الجارية يدفعان على شكل قسائم من الخزينة العامة، بينما كان يؤجل «الثلث المعزز» على شكل دين على ذمة الدولة، تدفع له فوائد إضافية، أيضاً على شكل قسائم (المترجم).

Twitter: @ketab_n

جمع 57 ألف فرنك، أهديها اليوم إلى ابنتيك لكي تعينهما على بدء أحوال لائقة بمقامهما. وفي الوقت نفسه، وددت أن أبين لهما كيف أن الاقتصاد الثابت والمستدام يأتي بثماره يوماً.

توقف لوران قليلاً، وسط انبهار الحضور، ثم أضاف:

– قطعاً، لن تجدن صعوبة، أنتن الثلاث، في مسامحتي على ما تسببته لكنّ من خجل ومعاناة بسبب ملابسي المهلهلة، وبخلي الغامض، الذي توجب عليَّ الالتزام به لكي أصل إلى مآربي. أنا أيضاً عانيت الأمرين من ذلك، أكثر من مرة. لكنها فكرة إنقاذ أخت وابنتيها التي كانت تمدني بالحول والقوة لكي أواصل، وتلهمني الشجاعة لكي أتحمل. أخيراً، أتى حرماني الملذات والتسلية أُكله. وها أنتن في المقام الذي تستأهلنه في المجتمع، والمنزلة المشرفة اللائقة بقدركن. أصبحتن في مرتبة شرفاء تجار العاصمة. سأنهي معكن مسيرتي المهنية بهدوء وتؤدة. وعندما سأرى متجركن يزدهر، وألحظ ابنتي أختي متكاتفتين متعاضدتين، بإشراف أم رائعة، يحيط بها أحفادها، آنذاك، سأقول لنفسي: «هذه من محاسن صندوق التوفير».

تحققت أمنيات النقّاش الكهل كلها.

Twitter: @ketab_n

تمَّ، في المساء نفسه، إبـرام العقد مع صاحب متجر إكسسوارات الستائر العجوز، الذي كان على قناعة أن أسرة على ذلك القدر من التلاحم لابد من أن تكون مضمونة في سداد الدَّين المتبقي في ذمتها. وهذا ما حصل فعلاً، إذ دفعت الأقساط برمتها، في أوقاتها من دون تأخير. واغتنى الحانوت الواقع في شارع «أو فير» وازدهر أكثر من أي وقت مضى، وباتت له زبانية وفية كثيرة.

أما لوران، فترك النقش على المعادن إلى غير رجعة. فالمهنة باتت متعبة لعينيه، وتهدد سلامة بصره. انتقل إلى إدارة السجلات التجارية في حانوت أخته وابنتيها، وعكف على متابعة قسم من المراسلات الخاصة بالمحل. وحصل على مرتب يتقاضاه طول العمر، ما أمن له عيشاً كريماً ومستوراً وآمناً ومستقلاً. بعبارة أخرى، على الرغم من عزوبيته، أحس بمعاني أن يكون الرجل رب أسرة حقيقية، وما تنطوي عليه تلك المهمة من متعة بريئة رائعة.

وعندما كان يتأمل ابنتي أخته، في المتجر، ويلحظ أنهما كانتا لا تزالان متواضعتين، غير مغرورتين إطلاقاً، وأنهما تستقطبان الزبائن ببساطتهما وتهذيبهما، كان يردد لنفسه:

– هذه من محاسن صندوق التوفير.

Twitter: @ketab_n

حمّال سوق الجُملة

عندما وهبتنا السماء القوة، أرادت أن تكون مصحوبة بالصبر والرقة. من دونهما، تصبح نعمة القوة استلاباً لحقوق المساواة المقدسة بين البشر. فتصوروا رجلاً وُهب، قوة عضلية هائلة وهيكلاً جسدياً صلباً، في آن واحد يصمد إزاء أكثر الأعمال إنهاكاً... تصوروا لو انصاع هذا، من دون وازع، إلى طبيعته الشرسة، وحُميًّا أهوائه، لاستبد بالخلق استبداداً وبطش بهم بطشاً دنيئاً مقرفاً. حينذاك يصبح، إن جاز التعبير، مثل آكلٍ للحم أخيه الإنسان، ينبغي لجمه وترويضه كحيوان كاسر خطير، أو نبذه من المجتمع.

حتى الحيوانات تعطينا بعض أمثلة عن الشرط الذي فرضه الخالق على الأقوى منها بأن تجاري الأضعف وتحميه. هكذا، نرى الحمل الوديع يرعى بأمان ودَعَة إلى جانب الثور الخائر؛ والحمامة الضعيفة تحط على أعلى شجرة السنديان، حيث وضع النسر أفراخه في عش قريب؛ وكلب الدرواس الضخم الشرس

Twitter: @ketab_n

ينظر بإشفاق إلى الكُليب المخارش الضئيل الذي يستفزه. ويثير إعجابنا، في حديقة الحيوانات، مشهد فيل يداعب بخرطومه غزالة تأتي فتنام قرب رجليه. بل رأينا حتى أسداً، أجل ملك الغاب نفسه، يلحس بلسانه كلباً صغيراً بات رفيقه في الحبس.

كيف يمكن إذن أن يكون الإنسان - الذي وهبه الله نعمة الفكر وتلك الروح الرائعة، مقام عظيم الأمور ومستقر كبائرها - هو من ينصاع إلى قسوة لا يندر أن تكون مُهلكة، وينقاد إلى رغبة بالتسلط، هو نفسه مَن يسعى إلى ترويضها عند الحيوانات المتوحشة؟ ذلك التساؤل - الذي يحسن بثه بين الخلق، لاسيما أبناء الشعب ممن تقودهم أعمالهم وعاداتهم، في معظم الأحيان، إلى نسيان الآداب الاجتماعية ومظاهر الاحترام الواجبة بين أفراد العائلة الواحدة - هو الذي هزني بشدة، فدعاني إلى أن أقص هنا حكاية حصلت أحداثها تحت ناظريَّ، إلى حد ما. وهي تقدم برهاناً على أن التراخي في ضبط قوة خارقة وهبتها الطبيعة يؤدي إلى خسران السعادة ورائحة البال، وأن الإنسان قد يدفع حياته ثمناً للحظة انقياد وراء طبيعته الشرسة.

تميز أثاناز لوكلير، منذ المراهقة، بجسم متين. وحظي بتلك الطاقة الهائلة التي تبدو وكأنها تضفي على صاحبها صفات من

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

على الرغم من طبيعة أثاناز الطيبة الودودة، كان أحياناً نافد الصبر بشكل خارج عن سيطرته. وكانت تلك الحالات تنتابه بشكل خاص بعد شرب الخمر، الذي كان يحيله صعب المراس. آنـذاك، كان لا يندر أن يتخيل الآخرين يسعون إلى التسلي بالضحك عليه. وفي تلك الحـالات، كان أدنى مزاح يُغضبه ويُفقده صوابه، ما تسبب في شجارات حادة، كان يمكن أن تتطور إلى الأسوأ لولا أن قوته الخارجة عن المألوف تلهم التريث والتحفظ.

في أحد الأيام، بينما كان أثاناز نائماً في السوق، مرَّ أحد زملائه حاملاً دلو الصبغ الأسود والفرشاة المستخدمَين لتأشير أكياس البضائع والسلع والغلال المختلفة. فما كان من الأخير إلا أن رسم شاربين فوق شفتي زميله الغافي، وخطوطاً تحاكي الأخاديد على جبينه، ما جعله يبدو أكبر بأربعين عاماً من عمره. بعدما أفاق من قيلولته، لم ينتبه حالاً إلى اللعبة. لكنه، بعد هنيهة، فطن إلى أن شكله يحض المارة على الضحك. فذهب إلى حانة قريبة، ورأى نفسه في المرآة الصغيرة المعلقة فوق البار، وحاول جزافاً مسح الصبغة الملتصقة على بشرته. فانتابته حالة الغضب والجزع تلك، فهشم المرآة بضربة من

Twitter: @ketab_n

قبضته، وشوّه المشرب بضربة أخرى، وهو يطلق ألعن اللعنات وأوضع الشتائم على رسام الأخاديد والشاربين، الذي، طبعاً، لم يجرؤ على التعريف بنفسه.

في مرة أخرى، تلقى أثاناز ضربة سوط عن طريق الخطأ من حوذي عربة لنقل الطحين، فسقطت قبعته، المخيطة من المخمل الرمادي، وتمرغت في الطين. فأمسك بالحوذي من حزام بنطاله، ورفعه إلى أعلى بذراعين ممدوتين، وصرخ في رفاقه سائلاً:

– مَن يريد أن يَعدَّ أحشاء هذا الحقير قبل أن أسحنه؟

هرع الآخرون لإنقاذ الحوذي المسكين. ولحسن حظه، مرّت الأمور بسلام بالنسبة إليه، فاكتفى بصدمة خوف وهلع مروعة، إنما من دون أضرار جسدية.

على الرغم من ذلك، كان الشاب أثاناز يسعى أحياناً إلى التكفير عن نوباته العصبية ونفاد صبره وشراسته بأداء أعمال تنمُّ عن شهامة وكرم أخلاق وتفان وإيثار عالية. فعندما كان يرى ساعياً عجوزاً يمر من أمام السوق وهو يسحب عربته لاهثاً ومتعرقاً، كان يهبُّ دوماً فيدفع العربة بكل قواه من الجانب الآخر، معيناً العجوز على استعادة أنفاسه. وعندما كان يلحظ

Twitter: @ketab_n

زوجة بائع ماء، حاملة دلويها الثقيلين، تهمُّ بتسليمهما إلى أحد الزبائن، كان يسارع فيأخذ منها الدلوين، صارخاً:

– يا خالتي، ستعرضين نفسك للإصابة. الآن، هيا، دُلّيني على مكان زبونك، وسأصعد بطلبيته بدلاً منك.

حالما كانت تمرُّ متسولة حاملة طفلاً على ذراع وممسكة بيد أخيه الأكبر، مجرجرة إياه وراءها، كان أثاناز يعطف عليها بقطعة نقود بيضاء، ويُجلسها على مسطبة لكي يريحها، ويفاجئها بتقديم كأس مشروب يفرحها ويخفف عنها. وحال سقوط حصان جَرٍّ جراء تحميله أثقل من المطاق، كان أثاناز يهرع لرفع عجلة العربة عن الحيوان المسكين، ويعين هذا على النهوض مجدداً. في سوق الجملة، بات معروفاً أن الشاب كان أيضاً لا يتوانى عن مساعدة أي من رفاقه الحمالين في حال إصابته بالإرهاق، فكان يكمل عمله بدلاً منه، ويترك له جزاءه كاملاً غير منقوص.

ومَن، في السوق، كان يتجشم الصعود على قمم أهرامات أكياس الدقيق والحبوب، فيحمل الأكياس الموضوعة عالياً على كتفيه ورأسه لتجنيب الحمالين الأقدمين، وضعفاء البنية منهم، عناء ذلك العمل المضني والخطير؟ الجواب، طبعاً، هو أثاناز. في أي مكان تُسمع فيه صرخة استنجاد للإنسانية، كان الفتى

Twitter: @ketab_n

القوي يهبُّ مسرعاً، بروح صادقة ومتفتحة، وبرغبة عميقة في أن يكون نافعاً.

كان الحمالون مقسمين إلى جماعات صغيرة، قوام كل منها 12 شريكاً، يناط إليهم إنجاز العمل في جزء معين من السوق. وكل جماعة تشكل، نوعاً ما، أسرة كبيرة من 12 أخاً، يخضعون إلى إمرة أقدمهم. وكانت الأرباح ملكاً مشتركاً، توزع بالتساوي، مقسمة على 12. من محاسن تلك المشاركة أنها تقضي على الغيرة والحسد والطموحات غير النزيهة والمنافسة الضارة. فكل شيء منصهر في بوتقة المصلحة المشتركة. كان كل منهم، عندما يأتي دوره، يحمل الحمل، الذي يزن عادة 325 رطلاً[1]، ما كان يُجازى بفلسين اثنين لإدخال الحمولة إلى السوق، ومثلهما لإخراجها منها.

على ذلك المنوال، توجب أن يقوم كل شريك بحمل ذلك الحمل الثقيل خمسين مرة في اليوم لكي يصل أجره إلى خمسة فرنكات في اليوم. من ذلك الأجر، تستقطع نسبة صغيرة توضع في صندوق خاص، ينفع في حال حصول أي طارئ، وتحمل كلفة علاج المصاب من بين الجماعة. إذن، عندما نحسب الوقت

(1) ما يوازي أكثر بقليل من 147 كيلوغراماً (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الذي يمضيه كل حمال من حمالي السوق وهو ينوء تحت حمل كيس الطحين الثقيل – بعد أخذه من العربة الواقفة قرب باب السوق، ثم نقله أولاً إلى أسفل تل الأكياس، ثم الصعود به إلى قمة التل، التي يصل ارتفاعها من 25 إلى 30 قدماً[1]، مع افتراض أنه يلزم عشر دقائق، على الأقل، لنقل الكيس في كل مرة –، حينئذ نجد أن الحمال المسكين يمضي يومياً ثماني ساعات وهو تحت ذلك الثقل الرهيب من 325 رطلاً.

ثماني ساعات تحت 325 رطلاً من أجل كسب لقمة العيش، وحسب، وسد المتطلبات الضرورية للحياة، وإعالة الأولاد والزوجة. صحيح أن هذه الأخيرة، في بعض الأحيان، تعمل من جانبها، عندما تتيح لها واجباتها كأم وربة منزل، فتكسب زهاء ثلاثين فلساً يومياً من حياكة الحقائب. لكن، من اليسير تصور أن التوصل إلى سد تلك الاحتياجات، اللازمة للبقاء، يتطلب أقسى أنواع التقتير وحرمان الذات من الملذات، وقسطاً كبيراً من الاعتدال، إن جاز التعبير، بغية تخصيص الكسب القليل للطعام ودفع الإيجار، الغالي في الحي القريب من سوق الجملة، والعناية بالملابس – فهم حريصون دوماً على النظافة التامة، وأيضاً لأخذ رشفات مشروب ضرورية لكي تريحهم وتلهمهم الهمة.

(1) أي بين 7،62 متر و 9،14 متر (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ما يثبت استتباب النظام في آلية عمل حمالي سوق الجملة، والانتظام في سلوكهم، هو أن من النادر أن نجد بينهم بائسين أو كئيبين. على العكس، نرى دوماً وجوهاً متفتحة وبشوشة، وأذرعاً قوية العضلات مستعدة على الدوام للإعانة ورفع أي حمل، مهما كان ثقيلاً. ودوماً، عندما يتحدثون، يُسمع كلام مرح وعبارات ساذجة لكنْ لطيفة. وبين أولئك الرجال، نلمس وفاقاً جميلاً ومساواة رائعة. باختصار، من بين الشعب البسيط، ليس ثمة نقابة أكثر كداً وتعباً، وفي الوقت نفسه قيماً راقية، من نقابة حمالي سوق الجملة.

عظم شأن أثاناز لوكلير في أعين رفاقه بفضل قوته الخارقة وسجيته الطيبة وطبعه الخدوم. على الرغم من ذلك، حرصوا على عدم إغضابه تفادياً لنفاد صبره، بالتالي تأجيج هوجه. ففي تلك الحالات، كان زمام أمره يخرج عن سيطرته، وكل ما يمسك به يتهشم بين يديه، ولا يستبعد أن يتسبب في إحداث عاهة حتى لأعز أصدقائه، ثم يندم ندماً كبيراً ويحزن حزناً شديداً إثر ذلك، بعد استعادة صوابه. لكن، كان يستحيل أن يراه أحد من دون الإعجاب به، ولا أن يعرفه من دون أن يُكنَّ له الود التقدير. وأكثر ما يثير الإعجاب كان تعبيره الدائم عن أمله في التمكن

Twitter: @ketab_n

من كبح جماح الجانب العنيف في طبعه، ما أفضى به مراراً إلى مظاهر تهور جلبت له الغمَّ وجعلت الندم يعصر قلبه.

تزوج أثاناز. ولفترة طويلة، وفى وفاءً خالصاً بالوعود التي قطعها لعروسه الغالية، مانون. تجنب أي حركة هوجاء، وتفادى أي جزع، وتحاشى أي فقدان أعصاب، سواء أفي أقواله أم أفعاله. بدا وكأنه أسد رُوِّض بين ليلة وضحاها. كانت طيبته حقيقية وصادقة، مصحوبة برقة ومبادرة إلى الخدمة والالتفاتات الكريمة تجاه زوجته. تعجب الخلق من هذا التغير العميق في سلوك «هرقل السوق». أما عروسه، التي سعدت بالقدرة على ترويضه، وافتخرت، فضاعفت حبها له وتقديرها، وثقتها به. لم تكف عن الإطراء على طيبة زوجها وسجيته النظيفة أمام أهلها وجيرانها، مرددة كم هي سعيدة في زواجها. تلك السعادة، التي بدت راسخة غير قابلة للتزعزع، تعززت أكثر بميلاد ابن سمياه فورتونيه.

كم هو ناعم سحر الأبوة، وفي الوقت نفسه كم هو جبار! إنه يجعل الزوجة الأمَّ محببة على قلوبنا أكثر وأكثر، ويجعلنا نحس بأننا مدينون لها بتلك السعادة المتجددة في كل يوم. هكذا، تضاعف حب أثاناز لرفيقة عمره الغالية، وازدادت رقته معها

Twitter: @ketab_n

وعطفه وحنانه. لم يعد يهمه شيء أكثر من نيل إعجابها سوى رغبته مشاطرتها العناية بطفلهما ورعايته. كم مرة شوهد ينزه فورتونيه، الغالي على قلبه، ويفسحه ويحضه على خطواته الأولى، بينما كانت مانون تعمل في دكانها، الذي راجت تجارته وتوسعت! كم مرة وُجد يلاعب طفله في سوق الجملة، ويسعى إلى إضحاكه بالكلام الفكه وبتلك البلاهات التي يستنبطها الحب الأبوي! كم مرة لوحظ يكفكف دموع صغيره فورتونيه، ويخفف معاناته ويهدئ صرخاته، ويداعبه بحنان! هكذا أصبح قوي الأقوياء عبداً لأضعف الضعفاء. والأحلى، بدت له قيود تلك العبودية ألذ من اللذة.

تلك العبودية الهادئة والجبارة في آن واحد، تضاعفت بمولد ابنة، كانت آية في الجمال، صورة حية عن أبيها، الذي سماها إيلين، تيمناً باسم والدته المتوفاة، التي طالما عانت من شقاوته. فأراد أن يكرم ذاكرتها بإطلاق اسمها على ابنته. وشبه هذه الأخيرة به عزز حقه في الولع بها. أثاناز، الذي بات متفتحاً ورقيقاً وحنوناً، كان يظن أن لا شيء في العالم سيقلص تعلقه بصغيره الغالي، فورتونيه. فالطفل البكر، الذي يجعلنا نحس بلذة الأبوة للمرة الأولى، يُبقي أثراً في الذاكرة تستحيل إزالته.

Twitter: @ketab_n

لكن حمال سوق الجملة، بعدما قسَّم، لفترة، وقته ورعايته قسمة متساوية بين طفليه، بدأ ينساق إلى تفضيله الخفي لابنته على حساب ابنه. ولولا أمُّ الأخير، التي سعت قدر المستطاع إلى تعويض عدم اكتراث أبيه، لأصبح الطفل المسكين بعيداً كل البعد عن الحصول على أدنى قدر من حقوقه المقدسة كطفل.

أثاناز كان لا يزال يحب طفله. لكن أسئلة فورتونيه الملحة البريئة، الطبيعية في سنه، كانت تضجر والده وتتعبه، وضجيج لعبه وصخبه تفقدانه صبره. أكثر من مرة، لحظت مانون زوجها يضغط على نفسه لكي لا ينفد صبره فيعاقب الطفل الشقي على الضوضاء التي يحدثها. وحمال سوق الجملة، مع الإقرار بأن ابنه كان يذكره بنفسه طفلاً، كان يبدي تسامحاً لا مثيل له، وفي الوقت نفسه يحمل ابنته إيلين بين ذراعيه، ويبتعد عن صغيره، تاركاً إياه مع أمه. وهذه الأخيرة، بتغاضيها عن نزوات فورتونيه وشقاوته، كانت تسهم في ترسيخ طبيعته المتعجرفة العنود، والجامحة، التي وهبتها إياه الطبيعة.

جعلت تلك السجية العنيفة تتضخم وتتفاقم يوماً إثر يوم. هكذا، منذ تلك الفترة المبكرة من عمر الطفل، بدأ والده يسعى إلى تأديبه وترويضه بعقوبات باتت لا غنى عنها، إما بغمز أذنيه

Twitter: @ketab_n

أو قرص أنفه أو خديه. لكن، حالما كان حمال السوق يقرّب إصبعاً من صغيره، كانت أمه تتشنج بأسرها هلعاً، ويكفهر وجهها ويشحب، وتطلق صرخة من أعماق صدرها الأمومي الحنون، فترتدع أثاناز، وتسمّره في مكانه.

بلغ الطفلان سِنَّي تسع وثماني سنوات. فورتونيه، الذي كان يشبه أمه مانون، بتقاطيعها الناعمة المحبوبة، كان يخفي سجية أبيه العنيفة المستبدة. بات يستحيل ثنيه عما يريد إن قرر أن يريد، ولا يمكن إطلاقاً تهدئته إن نزق واحتد. عبثاً، كانت تسعى أمه إلى استغلال سلطتها النابعة من حنانها وعطفها، وعبثاً تحاول أن تؤلف من جسدها حائط صد بين الأب والابن، الذي لم يكن ليتفادى صفعات كان يستحقها في معظم الأحيان. لكن، بما أنها كانت تأتي من ذراع عصبية غير مدركة لزخم قوتها، كاد الطفل المسكين يروح ضحيتها بضع مرات.

فحمال سوق الجملة، مثلما سبق وذكرنا، كان يهشم كل ما تقع عليه يداه. وأعضاء فورتونيه الغضة كانت تحت رحمة قبضة «هرقل المعاصر» الحديدية.

في أحد الأيام، بينما كانت مانون غائبة لفترة وجيزة، وبالتالي لم تكن موجودة بحيث يحض مجرد حضورها أثاناز على الاعتدال،

Twitter: @ketab_n

تعارك الشيطان الصغير مع أخته، فلكمها على أنفها، الذي تفجر منه الدم، فسال على ملابسها. المصيبة أن أثاناز دخلَ في تلك اللحظة تحديداً. فقد صوابه لمنظر ابنته المضرجة بالدم. فأمسك بابنه، مطلقاً صرخات مروعة، وكاد يحطمه تحطيماً بين ذراعيه لولا أن مانون، التي جاءت راكضة ولاهثة، انتزعت ابنها من بين يدي أبيه. أنقذت حياته. لكن، عندما أمسك به أثاناز من فخذه اليسرى، كسر عظم الفخذ. استُغيث بالعارفين لكي يخلصوا الطفل المصاب، إنما سدىً: اعترفوا باستحالة شفائه، وصرحوا أنه سيظل أعرج طوال عمره، ولن يتمكن من السير من دون عكازة.

لم يتصور أثاناز أنه ضغط في مثل تلك الشدة على ابنه المسكين. فندم ندماً شديداً على انصياعه للغضب، إنما هيهات بعد فوات الأوان. ولم يعد يهمه شيء غير التعويض لولده لما فعله به، فبات حنوناً معه، يغدق عليه العناية والعطف. وما كان يزيد في حزن حمال سوق الجملة هو صمت زوجته المؤلم. لم تنبس ببنت شفة، ولم تهمس بأدنى لوم، ولا أدنى عتاب. لكن، كم من مرة فاجأها وعيناها مغرورقتان بالدموع، وهي تشد الطفل المعاق بين ذراعيها، فتمسح دموعها على عجالة حالما يهلُّ زوجها، وتتخذ هيئة الوقار وتتظاهر بابتسامة تمزق قلب الأب الشقي.

Twitter: @ketab_n

أرغِم أثاناز على العزوف عن طموحه بالسعي إلى إدخال ابنه لاحقاً، عندما يصبح في سن الحادية والعشرين، في نقابة حمالي سوق الجملة. لذا، سجله كصانع عند خياط، حيث قُمعت حيويته وطاقته بسبب ضرورة الجلوس طويلاً لأداء تلك الصنعة. تدريجياً، بدأ جسده يتداعى إلى الوهن والكساح. أما نفسه اليافعة، فعلى العكس جعلت تزداد رقة وودّاً يوماً بعد يوماً. إلى ذلك، جلبت كفاءته المتزايدة في العمل بعض سلوان لوالديه.

وما كاد فورتونيه يبلغ سن السادسة عشرة، حتى أدرجه الخياط الذي كان يتعلم المهنة عنده في قائمة العمال من الدرجة الثانية، على الرغم من سنه المبكرة. آنذاك، ختمت أخته، إيلين سنتها الرابعة عشرة. جمعت هذه تقاطيع أبيها المنتظمة، ونظراته الثاقبة، مع نعومة أمها الملائكية وطبيعتها السعيدة. أحبها الكل، وأعجب بها أكثر وأكثر. وكم كان يرعاها أخوها الأعرج عندما كان يأتي لزيارة بيت الأسرة في الآحاد! وكم كان تعلقها به حنوناً وصادقاً! بدت وكأنها تروم تعويضه عن إعاقته. وكان فورتونيه يقدر مظاهر حبها الأخوي حق قدره، ويسعد له، فيسليه إعجابه بأخته نوعاً ما عن قسوة ما آل إليه من حال.

للأسف، قدِّر لمحاسن إيلين أن تتلاشى قريباً. كانت مثل

Twitter: @ketab_n

وردة متفتحة رائعة تتعرض لغضبة العاصفة، فتسقط فجأة، وتتبدد تيجانها.

تدريجياً، أدى حزن أثاناز الدفين بسبب إعاقته ابنه إلى جعله يزداد مرارة ومزاجاً صعباً. وعلى الرغم من الإنذار الذي وجهته إليه الحياة من مغبة الاحتداد، الذي كان يدفع ثمنه باهظاً، كانت تنتابه حالات نفاد صبر وجزع تصعِّد الدم بسرعة إلى رأسه. حتى إنه، تفادياً لأي مناظرة أو مشادة، سواء أفي السوق أم في البيت، كان يلوذ بالابتعاد فجأة، فلا يعود سوى بعد انتهاء الأزمة الجسدية، التي كان يعي أنها خارج نطاق سيطرته.

حصل الأمر في عز الصيف. كان الحر لا يطاق. وبعدما عمل أثاناز طويلاً، عاد من السوق إلى البيت لتناول وجبته اليومية وهو يتصبب عرقاً، مرتدياً سترة وبنطلوناً من قماش خفيف. كانت مانون حزينة، كعادتها منذ زمن، لكنها لم تتخلَّ عن طيبتها وطبعها الخدوم. لفَّت منديلاً حول رأس زوجها لكي تجفف العرق الذي أغرقه. في تلك الأثناء، ركضت إيلين لأخذ الحساء المغلي على الطباخ وجلبه لأبيها. لكن، في لحظة وضعه على المائدة، تعثرت، فأفلتت القِدر من بين يديها، فانسكب الحساء الساخن على فخذه، فأحرقها.

Twitter: @ketab_n

الألم الحاد الذي ألمَّ بأثاناز أفقده صوابه، وأنساه هوية من تسببت فيه. فكان رد فعله الغريزي أن وجَّه ضربة إلى ظهر ابنته، رمتها على بلاط الأرضية. حالاً عقب ذلك الاحتداد المتهور، الذي انساق إليه رغماً عنه، صرخ صرخة ممزقة، فحمل إيلين وضمها إلى صدره. على الرغم من الألم، الذي قطع أنفاسها، قالت له إيلين:

– لا تخف يا أبي، أرجوك، لا تخف. إنه لا شيء.

مع ذلك، غلب الشحوب وجه الفتاة الملائكي، وخفت بريق عينيها. ثم غابت عن الوعي تماماً. وضعها أثاناز على سرير وهو يعوي كذئب جريح. أما مانون، فعلى الرغم من ارتعادها رعباً، ركضت سريعاً إلى طبيب جَراح يسكن في الجوار. جاء هذا بسرعة، فوجد الطفلة استعادت وعيها، مرددة لأبيها مجدداً:

– لا تهتم يا أبت، لا تهتم. إنه لا شيء.

المسكينة! كانت مخطئة في تشخيصها. الضربة التي تلقتها، التي لم يُقدِّر أثاناز شدتها وعنفها، رجَّت النخاع الشوكي للمخلوقة الجميلة الرائعة، وأصابته إصابة دائمة، لما تبقى من العمر. بدأ وجهها يصبح طويلاً ومدبباً. وصارت عيناها فاقعتين، من دون

Twitter: @ketab_n

أي بريق، لا تعبران سوى عن الحزن. وصدرها المصاب بات يتنفس تنفساً سريعاً وصعباً. وقوامها، الذي كان ساحراً، تقلص بعشر بوصات. ذراعاها الطويلتان ويداها النحيفتان شكلت تناقضاً مرعباً مع باقي جسمها. باختصار، أصبحت أجمل فتاة في حي سوق الحبوب مجرد حدباء تافهة بالنسبة إلى من لم يعرفها من قبل، وفتاة تثير حقاً الإشفاق بالنسبة إلى من عرفوها سابقاً، وكان عهدهم فيها وسيمة جذابة، تشع طراوة ونضارة.

كيف يمكن وصف ألم أثاناز، وندمه وانهياره؟ يا له من عذاب بات يعصر قلبه عصراً كلما كان ناظراه يقعان على إيلين! كانت نار الشقاء تستعر أكثر في صدره عندما كان فورتونيه، الابن الأعرج، يأتي في كل يوم أحد لكي يواسي أخته، ويعيد إليها المداعبات الأخوية التي كانت لا تمن بها عليه عندما كان يعاني من فخذه المكسورة.

حدَّث حمال سوق الجملة نفسه بالقول:

– هكذا إذن، صرت جلاد ولدي وبنتي بنفسي. أنا، الذي خلقه الله لكي يكون سندهما وعونهما وحاميهما، صرت جلادهما. حطمت شبابهما وقضيت على عافيتهما ودمرت سعادتهما والمستقبل الزاهر الذي كانت المشيئة الإلهية كتبته

Twitter: @ketab_n

لهما. آه، إنني أثير اشمئزاز الآباء كلهم، والأولاد كلهم! لا، لا، لن أقدر على الظهور مجدداً في السوق. بأي وجه سأواجه الناس؟ سيشيرون إليَّ بالبنان. سينبذونني. لم يعد عندي سوى سبيل واحد: أن تتعجل نهاية وجودي البائس.

فعلاً، إثر ذلك، بدأ أثاناز يغوص يوماً بعد يوم في كآبة سوداء، لم يقوَ شيء على تخليصه من براثنها أو يصرفه عنها. عندما كانت زوجته تحاول إنعاش قواه، التي بدأت تخور أكثر وأكثر، كان يردعها بحركة صارمة خارجة عن إرادته، من دون أن يستطيع تمالك نفسه إزاءها، ثم يقول لها مطأطئ الرأس وبصوت حزين:

- آه! لقد حرمتك من سعادة تستحقينها أعظم استحقاق.

وعندما كان فورتونيه وإيلين يسعيان إلى تسليته بمداعباتهما، كان يحدجهما بنظرة إشفاق وشعور بالذنب، ويردد لهما الكلام نفسه:

- يا للضحيتين المسكينتين! يا للضحيتين المسكينتين!

لم يمض وقت طويل حتى قضي على ما تبقى من حياة كان مقدراً لها أن تكون سعيدة وطويلة. إذ أجهز على أثاناز الحرمان

Twitter: @ketab_n

الذي فرضه على نفسه من مزاولة أي حركة أو تمرين، فضلاً عن الألم الموجع الهائل الذي كان يحفر قلبه ويعذب روحه. كان الرجل طيباً وصريحاً وكريماً ورءوفاً، يجمع الصفات اللازمة كلها لكي يحظى باحترام الشعب البسيط وتقديره، وبناء صداقات حقيقية.

لذا، بكاه رفاقه وتأسفوا عليه. كما لم يتخلوا قط عن أرملته وابنه وابنته. وبقي منظر هذين الأخيرين، المثير للشفقة والحزن، مثالاً لأولئك الرجال الذين أنعم عليهم الخالق بقوة هائلة وإرادة جبارة، لكنهم يظلون عاجزين عن الانتصار على أهوائهم وانفعالاتهم، وغير قادرين على تأدية الأول من واجبات الطبيعة: القدرة على التغلب على الذات.

Twitter: @ketab_n

جورج وتيودور أو التربيتان المختلفتان

– تريد إذن أن تجعل من ابنك عالماً أو فيلسوفاً؟

هكذا توجه روبير، الذي يعمل ساعياً يسلِّم البضائع إلى الزبائن، بالسؤال إلى صاحبه جيرفيه. كان الاثنان جالسَين على ظَهريتيهما على عطفة الطريق، في ركن شارعي «لا مونيه» و«فوسيه سان جيرمان».

أجاب جيرفيه:

– بودي ذلك. من الأفضل لابني تيودور أن يواظب على التعليم المتبادل[1] بدلاً من التسكع طوال النهار في الشوارع أو التبطل على رصيف المدرسة. هذا ما يفعله ابنك، الذي يسلك درباً سيجعل منه أسوأ عنصر.

---

(1)التعليم المتبادل (بالفرنسية enseignement mutuel) طريقة تربوية شاعت في فرنسا بدءاً من العام 1815، بعدما أدخلها إلى بريطانيا الإنجليزي أندرو بيل، الذي كان استلهمها بدوره من مدارس زارها في مدراس، في الهند. بشديد الاختصار، تنصب الوسيلة على الاستفادة من مستويات التلاميذ بحيث يعكف كل مستوى منهم على تعليم التلامذة من مستوى أقل، وفي الوقت نفسه يتلقى الدروس من تلامذة المستوى الأعلى، وهكذا دواليك. والغرض تقليص عدد المعلمين والمدرسين، عندما لا تتيح الإمكانات توظيف أعداد كافية، مع تخصيص عدد من المراقبين البالغين (المترجم).

Twitter: @ketab_n

ردَّ روبير:

- تقول ذلك لأن ابني صرع ابنك قبل أيام، وتغلب عليه!

على ذلك التعليق، عقب جيرڤيه:

- كلا. ثم إن تيودور دافع عن نفسه ببسالة. ولو لم نتدخل، نحن الاثنان، لتفريقهما، لكان أبنك جورج نادماً الآن على مبادرته بالهجوم على تيودور.

- سحقاً! ولماذا يتعالى تيودور على قرينه، صديقه منذ الطفولة، الذي يساويه قدراً، ويتكبر عليه؟

- تيودور ليس متكبراً. إنه وديع كالحمل. لكن، ثمة من يعاكسونه لأنه يثابر ويستفيد من التربية التي يغدقها عليه عرَّابه، صاحب المبنى الذي أسكن فيه.

عقب روبير قائلاً:

- اسمعني يا جيرڤيه: لو كنت مكانك، لما طقت أن يصبح ابني مغروراً وانتهازياً تافهاً ومتعالياً لمجرد أنه يعرف القراءة والحساب. أنا من جانبي، بما أنني لا أجيدهما، لم أشأ أن يتعلم جورج أكثر مني. حاله كحالي، سيصبح ساعياً. سيحمل، مثلي،

Twitter: @ketab_n

البضائع والأغراض إلى سكان الحي الطيبين، فيستحق ثقتهم وتقديرهم.

– آمل أن يكون ابني تيودور جديراً بالثقة أيضاً. كونه يدرس لا يشكل سبباً لعدم التقدير، على العكس. أنت نفسك، يا روبير، سمعتك أكثر من مرة تتذمر وتلعن لعدم معرفتك القراءة والكتابة.

– لا أقول العكس. لكن جورج لن يتعلم أكثر مني. فمثلما تعرف، الابن الذي يتعلم أكثر من والديه، ينتهي به المطاف أحياناً إلى احتقارهما. وأنا ليس عندي المزاج لتقبل ذلك.

– أفهمك يا روبير. لكن عندي ما يشبه اليقين أن الأولاد كلما تعلموا أكثر، نما عندهم شعور بأنهم مدينون بذلك للوالدين. وأنا أعرف ما أقول لأنني جربت ذلك. فابني تيودور لم يكن قط على تلك الدرجة من الطاعة والاحترام واللطف تجاه أمه وتجاهي بقدر ما هو عليه منذ أن سجل في التعليم المتبادل. هناك، يقرؤون كتباً شائقة ومفيدة، ويتعلمون مبادئ الطاعة والرضوخ والأدب والنزاهة، باختصار كل ما يبني قلب الشاب ويرتقي به إلى مستوى رجل طيب ونافع.

Twitter: @ketab_n

– ألستُ رجلاً طيباً ونافعاً، أنا، مع عدم معرفتي القراءة والكتابة؟ بكلمة أو بمئة، أقولها صراحة: لا أنوي أن أترك ابني جورج يتعالى على الطبقة التي ولد بين ظهرانيها. أريده أن يعمل ساعياً، مثلي.

– أما أنا، فأحض تيودور على الاستفادة من كرم السيد دو لاپيرير لكي يرتفع إلى أعلى ما يمكن. لكل منا طريقته.

– وعندما يصبح شخصاً مهماً، سيتأفف من النظر إليك، سيخجل من أبيه...

– هذا ما سنرى... في انتظار ذلك اليوم، من الأجدر بك أن تُحذِّر ابنك جورج من مهاجمة ابني مجدداً عندما يعود من المدرسة. إذ أعترف لك، كصديق، أنني طلبت من تيودور أن لا يرحم جورج في المرة المقبلة إن تجرأ ورفع يده عليه.

– هذا أمر عادل: عندما يعمد أحد إلى الاستفزاز، عليه توقع الرد. لكن، أتعرف يا جيرڤيه؟ لنترك ولدينا يسويان مشاكلهما في ما بينهما، ولنتعهد بعدم لوم بعضنا بعض على كل صفعة يتلقاها أحدهما من الآخر.

– لك ما تريد يا روبير.

Twitter: @ketab_n

انتهت المحادثة عند ذلك الحد، إذ وصل أحد زبائن جيرفيه، وسلمه أمانة مهمة لكي يوصلها إلى وجهتها.

في اليوم التالي، جاء جورج إلى المنزل وإحدى عينيه متورمة، وسترته ممزقة، وهندامه على غير نظام. فشكا لأبيه كاشفاً أن تيودور هو من فعل به ذلك. رد روبير:

– أنت من هاجمته بداية، أليس كذلك؟

– نعم يا أبي.

– إذن، حصلتَ على ما تستحق.

أتى ذلك الدرس أُكُله، فلم يعد ابن جيرفيه عرضة لاعتداءات العنصر السيئ الصغير، ابن روبير. فهم هذا الأخير أن الهدوء والرقة والخجل تردع صاحبها عن العراك في الشوارع وتجعله يتجنبه، لكن، أيضاً، أنه يأتي وقت تعبِّئ فيه عزة النفس طاقة هائلة لصد الاعتداءات المهينة. اعتباراً من تلك اللحظة، صار جورج لا يتصدى لتيودور، ويتركه يذهب ويغدو بحرية، مع مناداته من بعيد، بسخرية «الطبيب»، أو «العالم»، أو «تلميذ التعليم المتبادل»... على ذلك التهكم، كان تيودور يردُّ بابتسامة، مبرهناً على أن التعليم لا يُبعد

Twitter: @ketab_n

الناس عن أقرانهم وأمثالهم، إنما، على العكس، يجعلهم أكثر قدرة على خدمتهم في المناسبات الكبرى.

لم يجهل أحد في مدرسة تيودور - الذي أصبح «مدرباً» هناك، أي مسؤول صف، بالتالي عزيزاً معززاً بين زملائه - أنه كان عرضة لبعض اعتداءات في طريق عودته إلى البيت، وأنه خاض مؤخراً نزالاً عنيفاً، خرج فيه منتصراً. التلاميذ من مستوى واحد يشكلون فيما بينهم اتحاداً حقيقياً، يسهر على سلامة أعضائه جميعاً. لذا تقرر، من دن علم تيودور، الاستعلام عن سر تلك المضايقات. وبعدما عرف زملاؤه أن مردها الغيرة، عزموا على الانتقام لكرامة مجموع التلاميذ، فوعد كل منهم بأن يختبئ في مكان معين لمراقبة الطريق والإمساك بالمعتدين الذين يجسرون على ملاحقة زميلهم ومضايقته.

في إحدى الأمسيات، حال خروج تيودور من شارع «تيبوتوديه»، عرض عليه خمسة أولاد أو ستة، على رأسهم جورج، وصاروا يصرخون «هذا هو الفاهم»، «هذا هو تلميذ المتبادل». في اللحظة نفسها، ترك زهاء اثني عشر تلميذاً مخابئهم، فهجموا على زمرة الوقحين، الذين ولوا هاربين. لكن رأس الشلة وقع بين أيدي التلاميذ، الذين أزمعوا جعله

Twitter: @ketab_n

يدفع الثمن للجميع. وعندما فطن تيودور إلى هويته، ركض فجعل من جسده درعاً، وصاح:

– إنه صديق طفولتي، وابن أحد زملاء والدي. لن أقبل أن يصاب بأي أذى.

تنازل رفاق تيودور إزاء مبادرته النبيلة، على مضض، فعفوا عن جورج، الذي نصحوه بشدة بالكف عن إيذاء أي من تلاميذ التعليم المتبادل، مؤكدين بعزم أنهم لن يتخلوا عنه، وسيعرفون كيف يدافعون عن حقوقه وينتقمون له من أدنى إهانة. جورج، على الرغم من سوئه، تأثر بشهامة موقف تيودور، ووعد بألا يهاجمه بعد قط، ولا يعكر صفو دربه.

سمع جيرفيه بعمل تيودور الكريم، وهنأه عليه. ولم يتمكن جورج، من جانبه، من إخفاء ما حصل على أبيه. وعندما جعل الأخير يسعى مجدداً إلى إسماع جيرفيه تعليقاته الساخرة في شأن ابنه، كان جيرفيه يرد بالقول:

– لكن، عليك أن تقرَّ بأن تيودور، لو كان شيطاناً مثلما تدعي، لفقدت أسرتك زوج أذنين الآن. هذا كله يعزز رأيي في أن التربية تجعل الناس أفضل.

Twitter: @ketab_n

لاحقاً، حلّت امتحانات المسابقة العامة لمدراس التعليم الابتدائي في باريس. «جمعية العلماء»، التي تعكف دوماً على نشر ما هو نافع بين الشعب، أعلنت أنها ستهب جائزة بقيمة ستمئة فرنك للتلميذ الأول في العاصمة. حظي تيودور جيرفيه بذلك الشرف. وللمناسبة، دُعي عرَّابُه، السيد دو لاپيرير، الذي كان محامياً ونائب عمدة دائرة باريس الساكن فيها، لكي يقلد الجائزة بنفسه إلى التلميذ النجيب الواعد. هذه الدعوة رفعت مودة العجوز الوقور تجاه ابنه بالمعمودية، وعززت آماله فيه.

أول شيء فعله تيودور بقيمة الجائزة، من ستمئة فرنك، كان شراء قلادة من ذهب لأمه، طلب أن تنقش عليها عبارة «إلى أمي الغالية، تكريماً من ابنك». ثم أهدى أباه عربة صغيرة، تسحب باليدين، كان يتمنى الأخير الحصول على مثلها منذ زمن بعيد لكي تعينه على نقل الأغراض الثقيلة التي كان الزبائن يأتمنونه عليها لإيصالها. كما كان من شأن العربة تسهيل نقل الحوائج في حال انتقال أسرة من مسكن إلى آخر، بالتالي تأمين زبانية إضافية مهمة.

قال جيرفيه لزميله روبير:

Twitter: @ketab_n

– هل فهمت الآن ما معنى التربية؟ أظن أن ابنك، لو وقع بين يديه مبلغ مماثل، لما استخدمه على ذلك النحو السديد.

– أجل، من المؤكد والأكيد أنه كان ليصرفه على الحلوى والسكاكر! لكنني لكنت تدخلت لأضع حداً للفوضى.

– أما أنا، فلم يتطلب مني الأمر أي تدخل يذكر. زوجتي أيضاً، لم تحشر أنفها. ما فعله تيودور ستمئة فرنك التي ربحها، فعله من تلقاء نفسه. مثلما ترى، كنا على حق عندما وثقنا به.

بعدما كرَّم التلميذ المجتهد أول ما كرَّم والديه، أزمع إكرام أحبِّ رفاقه على قلبه بما تبقى له من المبلغ. فجمعهم في وجبة بسيطة، دعا إليها جورج أيضاً. وبما أن ملابس هذا الأخير كانت مهلهلة، بسبب عراكه الدائم مع أشقياء الحي، أحس بنوع من المذلة أثناء حضوره بين مجمع تلامذة مرتبي المظهر، كانوا لأشبعوه تهكماً وسخرية لولا أن تيودور عامله كصديق الطفولة. لكن أكثر شيء جعل جورج المسكين يحس بالمهانة كان جهله التام في وسط متعلمين يستشهدون بهذا القول المأثور أو تلك الحكاية الخارقة. آه، كم أحسَّ ابن روبير بالتفاهة والانحطاط في تلك الحلقة! كم شعر بالندم والقهر عند مقارنة نفسه بهم!

Twitter: @ketab_n

انهار جورج إلى درجة أنه طلب من والده أن يرسله إلى التعليم الابتدائي، حاله حال العديد غيره. لكن أباه رفض، مصراً على الظن أن الأولاد المتعلمين يتعالون على آبائهم الأميين. قال لجورج إنه لا ينوي أن يحذو معه حذو جيرڤيه مع ابنه، وإنه لا يريد أن يمتلئ رأسه بخزعبلات، فيراه مترفعاً عليه يوماً، ومتأففاً من مهنته كساع بسيط، ويتكبر على الوسط الذي ولد فيه ونشأ. جورج، من جانبه، كان في قرارة نفسه على يقين أنه غير مؤهل للدراسة. لذا، ارتاح لرأي أبيه، وانصاع إليه برحابة صدر، وبدأ يعينه في عمله.

تيودور، الذي استشف فيه عرَّابُه، السيد دو لاپيرير، موهبة نادرة، سجله في إحدى ثانويات باريس، حيث أحرز تقدماً سريعاً. في كل عام، حصد جوائز وكؤوساً كثيرة. وكان، في كل مرة، لا يغفل الإطراء على والديه والإعراب عن امتنانه إليهما لما ضحيا به من أجله. ومن جانبهما، كانا يسعدان بنجاحه، ويفخران بأنهما أنجبا مثله. أما عرَّابه، المراقب الثاقب للمجتمع، فلحظ ببالغ الارتياح أن الصبي، على الرغم من تفوقه في «ثانوية شارلمان»، ظل بسيطاً، ولم يركب رأسه أو ينزلق في فخ الغرور. بقي على سجيته الفرحة، ولم يخجل يوماً من مهنة أبيه.

Twitter: @ketab_n

بل، عندما كان تيودور يترك القسم الداخلي في أيام العطل، فيأتي لزيارة المسكن المتواضع الذي ولد فيه وترعرع، كان يتخلى عن زي الثانوية، ويرتدي سترته القديمة وبنطاله العتيق من المخمل القطني، مستبدلاً قبعة الزي الموحد الأنيقة بقلنسوة متهرئة، فيعين والده على سحب العربة التي أهداها إليه، التي كانت تذكره بأول نجاحاته. عبر تلك المبادرة، التي تنمُّ عن قناعة كبيرة، كان يبرهن مدى تقديره وحبه لمن أنجبه إلى هذه الدنيا. في المقابل، لم يكن جيرڤيه يردع ابنه، في سن خمسة عشر عاماً آنذاك، عن مساعدته، إنما، على العكس، كان يفخر بوجوده إلى جانبه. في تلك الحالات، عند الالتقاء بروبير وهو ينقل أغراضاً، مثلهما، كان يتوجه إليه بالكلام، هازئاً:

– على قولك، التربية تبعد الأولاد عن آبائهم. أليس كذلك؟

في أحد الأيـام، وكان يوم خميس، كان روبير وجورج يجران عربتهما، محملةً بحمل ثقيل، ويصعدان شارعاً بزاوية انحدار صعبة، لاهثَين يتصبّبان عرقاً. رآهما تيودور، الذي كان سلَّم لتوه حقيبة كبيرة إلى مكتب عربات البريد، بالتالي لم يكن يحمل أي أمانة. توجه إلى جورج قائلاً:

– تبدو منهكاً. دعني أحل محلك لمساعدة أبيك، وخذ نفساً.

Twitter: @ketab_n

حالما أنهى كلامه، لبس صدرية الجلد ونسق خطواته لكي تتوافق مع خطوات روبير، فأعانه على إيصال الحمل الثقيل إلى أعلى الشارع.

قال له جورج، وهو يمد يده نحوه:

– صافحها! لم أكن لأتوقع ذلك منك قط. هل تركت الثانوية؟

أجابه تيودور:

– عذراً، لكنني أعود فأصبح ساعياً كل يوم خميس. الإنسان يحرص على عاداته القديمة.

لم يقاوم روبير تأثره بهذا التعبير المشرف عن الاعتراف بمهنته وتقديرها. فأزمع دعوة تيودور إلى شرب كأس في أقرب حانة. لكن التلميذ رفض، متذرعاً بأن عليه إيصال طلبية عاجلة.

بعدما التقى روبير جيرفيه في المرة التالية، سأله الأخير:

– إثر ما فعله تيودور من أجلك، هل مازلت تعتقد أنه سيكون مجرد متكبر مغرور؟

– أنا مرغم على الإقرار بأنه فتى طيب. معدنه ممتاز، هذا ما لا شك فيه. لكن، بقي ثمة شيء من كبرياء يمكن أن يُستشف من سلوكه.

Twitter: @ketab_n

– ماذا؟ أي غرور يا روبير؟

أجل، لقد رفض أن يعبَّ كأساً معي. هل خجل من الظهور إلى جانبي في الحانة؟ أنا مازلت مصراً على رأيي: التربية لا تناسب أولادنا.

أنهى طالبنا دراسة البلاغة والبيان. وكعادته، حصد الجوائز الأولى كلها. كان يفكر في القدوم إلى بيت أسرته لكي يمضي العطلة، ويتهيأ لمساعدة أبيه في عمله. لكن السيد دو لاپيريير، عرَّابه، أصرَّ على اصطحابه في رحلة إلى سويسرا. السيد الوقور، الذي كان على قدر عالٍ من التعليم، كان يتلذذ في قرارة نفسه برؤية ابنه بالمعمودية يطور فكره على ذلك النحو السريع ويمثل ذلك الاندفاع. وحرص على تحسين ذلك الفكر وإثراء ذلك العلم أكثر وأكثر عبر إبداء آرائه، النابعة من سعة معرفته وطول خبرته. أعاد تيودور إلى باريس من دون أن يفصح له عما كان يخطط لمستقبله. لكنه كان، منذ ذلك الوقت، راضياً عن إسهامه في جعله رجلاً، ببساطة.

أثناء غيابهما، طرأ حادث خطير لجيرڤيه: انكسرت فخذه وهو ينزل سُلَّماً شديد الانحدار، حاملاً ثقلاً كبيراً. فلم يعد الرجل الطيب قادراً على الاستمرار في عمله. وصاحب الفضل على

Twitter: @ketab_n

تيودور أخفى عنه ما حصل قدر الإمكان. لكن الطالب، بعد عودته، وجد أباه رقيد السرير، فألمَّ به القلق، متسائلاً عن كيفية إعالته، هو وزوجته الرائعة. لم يتردد الطالب البليغ لحظة. خلع ملابس السفر، وتأهب لارتداء جُبة السُّعاة المتواضعة، واستعد، إن تطلب الأمر، للعزوف عن كل ما كانت ستؤمنه له نجاحاته من حسنات وامتيازات، من أجل مزاولة أكثر الأعمال إرهاقاً.

بدا صمت السيد دو لاپيرير وكأنه علامة رضا واستحسان لقرار ابنه بالمعمودية. بل حرص على إيلائه أول مهمة توصيل، فسلَّمه صندوقاً وكلفه بتسليمه، مع هبوط الليل، إلى وكيل دعاوى بالغ الشهرة، يسكن قريباً من مسرح «أوديون». ها هو إذن تيودور، حاملاً ظَهريته على ظهره وممسكاً بالعصا ذات العقد بيده، يجتاز نصف باريس لكي يسلم الصندوق إلى صاحبه.

على «الجسر الجديد»، قابل روبير وابنه جورج، اللذين توقفا حالاً، مندهشين لرؤية تيودور يحمل أمانة لتوصيلها. سألاه، وفي نبرتهما دهشة، وفي قرارَتي نفسيهما شيء من التشفي الدفين:

– إذن أنت معنا مجدداً؟

أجاب الساعي الجديد بأريحية وعفوية:

Twitter: @ketab_n

– ربما. فوالدي لم يعد قادراً على العمل. وليس لديه ذرية أخرى غيري. لذا، يجب أن أحلَّ محله.

علق روبير وهو يصافح تيودور:

– بارك الله فيك.

أضاف ابنه، جورج:

– عليَّ القول إنني فرح لرؤيتك مجدداً تحت الظهرية. هذا يشرفك، ويشرفنا نحن أيضاً. وإن احتجت إلى أي مساعدة، فعوِّل عليَّ.

والمثل بالمثل يا صاحبي، ردَّ تيودور وهو يستودعهما مكملاً طريقه لتسليم الصندوق.

وصل عند وكيل الدعاوى، وهو رجل مسن، من أصدقاء السيد دو لابيرير القدامى، فسلمه الأمانة، فحصل على قطعة 30 فلساً، فقبَّلها والفرحة تسكره. وجَّه الكلام إلى وكيل الدعاوى قائلاً:

– عذراً. لكنه أول أجر أتقاضاه عن عملي، وأحمد الله عليه لأنه سيتيح إليَّ إغاثة والديَّ، وردَّ جميلهما عليَّ.

Twitter: @ketab_n

علق العجوز:

– إنني أهنئهما على ابن مثلك. وأجرؤ على القول إنك ستوفق كثيراً في مهنتك.

وهو يبتعد، لاحظ تيودور، بشيء من الدهشة، أن وكيل الدعاوى ينظر إليه باهتمام، مكشراً عن ابتسامة ماكرة. وضع الصندوق المؤتمَن في أحد الأركان، وعاد إلى منزله البسيط. هناك، خلع قلنسوته بخنوع، وأهدى إلى أبيه الـ30 فلساً الأولى التي تقاضاها أجراً.

رضي السيد دو لاپيرير بنتائج الاختبارات المختلفة التي أخضع إليها ابنه بالمعمودية. وأيقن بأن ذلك الفتى الممتاز مستعد للتضحية بتعليمه، من دون ندم، من أجل تلبية واجب الإحسان بالوالدين. تأثر بمقدرته على الإيثار ونكران الذات، وبشجاعته التي تدل على تأصل النبل والرجولة فيه. فقرر أن الوقت حان لإعلامه بنواياه، ودعوته إلى بدء المسار الراقي الذي اختطه له سراً. دعا تيودور إلى النزول من علية مبناه، التي كان يسكنها مع أمه وأبيه، وطلب منه حمل أمانة جديدة، متمثلة بحقيبة كبيرة، وإيصالها إلى وكيل الدعاوى نفسه، صديقه القديم الساكن في شارع «أوديون».

Twitter: @ketab_n

حمَّل الساعي اليافع الحقيبة على ظَهريته، وسار بها إلى المرسلة إليه. بعدما وصل، أوعز إليه وكيل الدعاوى بالصعود بالحقيبة إلى الطابق الخامس، حيث يسكن كُتَّابه الثلاثة الأوائل. نفذ تيودور، الذي أرشده أحد الشبان العاملين في المكتب. وصل، فوضع حمله قرب الصندوق الذي كان جلبه في اليوم السابق. وهو يمسح عرقه المتصبب، دخل المستشار القانوني العجوز، الذي أعطاه مفتاحين، ودعاه إلى أن يفتح أولاً الحقيبة التي جلبها لتوه.

فتحها تيودور، فرأى بذلته للسفر وملابسه الأخرى وكتبه، وكل ما كان عرَّابه أعطاه إياه أثناء دراسته. توقف نظره بشكل خاص على الهدايا الكثيرة التي تسلمها كمتفوق، فتبللت عيناه، رغماً عنه، بدموع هادئة. ثم طلب منه الحقوقي العجوز أن يفتح الصندوق. تضاعفت دهشته حين وجد حزمة بأكملها من ملابس حديثة، داخلية وخارجية. سأل إلى من تعود الهدية.

إنها لك أيها الشاب النجيب.

هكذا أجابه وكيل الدعاوى وهو يسلمه رسالة من السيد دو لابيريير، كان هذا نصها:

Twitter: @ketab_n

«العزيز تيودور،

انتهت الآن اختباراتك. إذ وجدت عندك ما كنت أطمح إليه: روحاً عالية وإحساساً حقاً، وصموداً قوياً أمام عوادي المصير، وإيثاراً جميلاً ونكراناً كاملاً لذاتك من أجل إعانة والديك، واحتراماً وتقديراً صادقين لأقرانك ومن هم في منزلتك.

فواصل المسار المهني المشرف الذي اخترته لك. ابدأ بدراسة قوانين بلدنا لدى الصديق الموقر الذي ائتمنته عليك، وأمّن إليَّ أكبر سعادة يمكنني الشعور بها في الحياة الدنيا: أن تصبح واحداً من أفضل الخطباء ممن يشرفون نقابة المحامين الفرنسية.

التوقيع: عرّابك، دو لاپيريير».

ظن الساعي الفتي أنه يحلم. رفع من قلبه إلى شفتيه ذلك المكتوب الذي كشف له مصيره، وترك نفسه يتهدهد في أحلى سكرات الفرح. لكن، ماذا عن أمه وأبيه؟ قبل القبول بذلك العرض المحسن، الذي من شأنه تحقيق أحلامه، أبى إلا أن يجد أولاً الإجابة عن تساؤله. فهرع إلى المنزل، متأرجحاً بين المستقبل اللامع المقترح عليه وواجبه تجاه والديه. كم كانت دهشته عظيمة عندما دخل المبنى العائد لعرّابه وصاحب الفضل عليه، فرأى

Twitter: @ketab_n

أن أباه بات يشغل بيت حارس البناية، حيث حلَّ محل الحارس السابق، الذي أرغمه كبر سنه على التقاعد. كما وجد تيودور أمه وقد عُينت مدبِّرة شؤون منزل السيد دو لاپيرير.

ارتمى تيودور على رجلي السيد دو لاپيرير، الذي رفعه حالاً، فضمه إلى صدره، وقال له بنبرة حنونة:

– مهلاً يا صديقي، مهلاً يا ابني بالمعمودية الغالي على قلبي. إنني أحمد الله وأشكره لأنه اختارني لكي أطور الصفات النادرة التي وهبك إياها. كن نبيلاً بفكرك وقوياً بشجاعتك. لا تطمح لا بالألقاب ولا بالمجد الخدَّاع. ولا تضحِّ البتة باستقلالك من أجلها. تحت ثوب المحاماة، لا تنس قط أنك لبست يوماً صدرية السُّعاة المتواضعة.

أقسم تيودور، وهو يقبل يدي العجوز الكريم ألف قبلة:

– لن أنسى ما حييت. ستظل كلماتك هذه محفورة في ذاكرتي.

في المساء نفسه، سلَّم تيودور على أمه وأبيه، وأخذ الإذن منهما، وتلقى مباركتهما. ثم ذهب لكي يستقر في مبنى وكيل الدعاوى، الذي استقبله كما لو كان ابن صديقه القديم، وبادر

Twitter: @ketab_n

بنفسه إلى تعريفه على الشبان العاملين في مكتبه بصفته زميلاً جديداً، جديراً بمقامهم. كما أبلغه أن عليه، بناءاً على رغبة السيد دو لاپيريير، أن يذهب منذ صباح اليوم التالي لكي يسجل كطالب في الحقوق.

سارع تيودور إلى تلبية ذلك الطلب. ارتدى حلة السفر، المؤلفة من «فراك» - وهو لباس أسود ضيق - وبنطال من قماش «لوڤييه» - وهي مدينة في مقاطعة النورماندي، غرب فرنسا - وقبعة مستديرة، وقميص عريض الطيات، يغلق على الصدر بثلاثة مشبكات. ارتدى بزته وذهب إلى ساحة «پانتيون»، حيث تقع جامعة السوربون، فأنهى أول إجراءات التسجيل.

وهو ينزل شارع «سان جاك»، قابل تيودور كلاً من جورج وأبيه روبير، اللذين كانا يجران عربتهما، محملةً بأغراض وأثاث تعود لمدرس تم تعيينه مؤخراً في متوسطة «لوي لو غران»، وكان ينتقل إلى منزل جديد في الحي. أثارت ملابس تيودور تهكم الأب وابنه. قال أحدهما:

- يبدو أن سترة مخمل القطن كانت تعيقك في حركاتك. أنت مرتاح أكثر في هذا الـ«فراك» الأنيق. أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

أضاف الآخر:

– ينبغي الاعتراف بأن هذا الملبس مناسب أكثر للتربية التي تلقيتها. على أي، كان حتمياً أنك لن تبقى واحداً منا.

لم يردَّ تيودور على استخفافهما المر سوى بسرد ما بذله السيد دو لابيريير من أجله ووالديه. لم يكن عسيراً عليه تبرير نفسه أمام صاحبيه، اللذين دعاهما إلى أن يظلا صديقيه، مؤكداً من جانبه أنه لن يفرِّط قط بصداقته تجاههما.

بات روبير، سواء أغيرةً أم تأففاً صادقاً، لا يكف عن الاستهزاء بتيودور كلما سنحت له الفرصة، فيسميه، بنبرة متهكمة، تارة «السيد حامل البكالوريا»، وتارة «السيد دكتور الحقوق».

إلى ذلك، على الرغم من أن لباس الحقوقي الشاب كان بسيطاً، غالباً ما تعرض بمرارة للسخرية الشريرة بسبب ارتدائه جوربين طويلين من الحرير الأسود، وزوج حذاء من نوع «إسكربينة»، مشابه لأحذية النساء. فهذه الأشياء كانت تظهر ساقيه نحيفتين، وقدميه غضتين، بعكس «المِسماة»، أو «الطِّماق»، ذلك الكساء الجلدي السميك الذي يغطي ساقي الساعي، وعلى نقيض ما ينتعله الأخير من قباقيب مرقعة بالحديد. كما سُخر منه بسبب

Twitter: @ketab_n

قميصه المزود، في أعلاه، بكشكش يدغدغ حنكه، وبسبب قبعته المدورة ذات الحاشية القصيرة والهيئة الطويلة العالية، التي تجعله يبدو أطول بكثير، بخلاف طاقية المخمل التي يعتمرها الكادحون ملتصقةً على الرؤوس.

كان تيودور يبتسم لذلك النقد اللاذع، ويُعجزه بأدبه ولباقته. لكن، سرعان ما حلَّ حدث خطير، أفهم السُّعاة الذين لا يجيدون القراءة والكتابة أن من السهولة بمكان استغلال طيبتهم وحسن نيتهم، وتنكيد عيشهم، وربما حتى تهديد حريتهم. لم يلتق جورج وتيودور منذ عامين. كانا في السابق يتلاقيان في شارع أو مفرق. وكان حامل البكالوريا اليافع هو من يبادر دائماً إلى مصافحة صاحبه القديم، سائلاً عن حاله وأحوال البيت والوالدين، باهتمام صادق وود حقيقي. وكان أحياناً يقرأ لجورج عنواناً نسيه، مكتوباً على قصاصة ورق، أو معلومات مسجلة على بطاقات تعريف ملصقة على أكياس وبضائع يحملها إلى مكتب مصلحة النقل، وما إلى ذلك. بل، لم يندر مشاهدته، بعد توديع صديق طفولته، يهرع إلى مساعدته بدفع عربته من الخلف بضع خطوات، لكي يسهل انطلاقته ويخفف حمله. ومثلما قال شاعر فذ: «عاداتنا القديمة، لها علينا سطوة عظيمة».

Twitter: @ketab_n

لم تتح تربية جورج أن يطور غريزة الذكاء التي تهبها لنا الطبيعة. لذا، كان يثق ثقة عمياء بأي شيء وأي شخص. كما كانت رغبته بكسب بضعة فرنكات إضافية تجره أحياناً إلى التسرع وارتكاب حماقات لا تحمد عقباها. في إحدى الأمسيات، بينما كان نائماً على عطفة الطريق، في ركن شارع «بُوردونيه»، أيقظه مندوب تجاري شاب، لائق المظهر وأنيق الملبس. وسأله إن يرغب في إيصال بالة بضائع إلى مركب من مدينة «ملن»، مزود بمحرك بخاري، كان راسياً في ميناء «لا غريف».

وافق الساعي الفتى. فتبع الموظف التجاري الشاب إلى رَدب، أي طريق مسدود، قرب دير «سانت أوپورتون». فصعدا إلى الدور المسروق، بين الطابقين الأرضي والأول. وهناك، كان في انتظارهما شاب آخر، حسن المظهر هو أيضاً، زعم أنه صاحب مصنع شراشف في «لوڤييه»، المدينة الواقعة في مقاطعة النورماندي، في غرب البلاد. حمَّل هذا الأخير بنفسه البالة على ظهرية جورج، الذي تبع المندوب التجاري المزعوم إلى المركب المطلوب. هناك، سلَّم جورج البالة، وقبض ثلاثة فرنكات أجراً.

Twitter: @ketab_n

بعد فترة، جاء المجهول الشاب نفسه، فاقتاد جورج وعرض عليه حمالة جديدة، لقاء الأجر ذاته. لكنه اشترط عليه أن يذهب وحده في هذه المرة، ومعه مكتوب موجَّه إلى الشخص الذي رآه في المركب سابقاً، الذي سيعطيه الفرنكات الثلاثة المتفق عليها. تمت عملية التسليم الثانية هذه من دون عائق، تماماً كسابقتها. وبعد زهاء 15 يوماً، كُلِّف الساعي بتسليم بالة ثالثة، وأعطي أيضاً مكتوباً مختوماً بالشمع، من دون عنوان، أوعز إليه بأن يسلمه إلى الشخص المقرر أن ينتظره في ميناء «لا غريف». أغذَّ جورج السير، والحمولة على ظهره.

لكن، في هذه المرة، بدت له البالة أثقل من سابقتيها. فاضطر إلى الاستراحة من وقت لآخر، تارة على نُصْبة على قارعة الطريق، وتارة متكئاً بثقله على عصاه ذات العُقد. وصل أخيراً إلى وجهته. لكن، لحظة وضع حمله، أحاط به عدد من أفراد الشرطة، فقبضوا عليه، ومعه الشخص الذي كان في انتظاره. كما وجدوا معه المكتوب المختوم، الذي كان منطوقه كالتالي:

«نجحت عمليتنا. هذه البالة تضم قطعتي شراشف إضافيتين، فانتبهوا لذلك. وادفعوا للحمال أجره. إنه شاب كتوم ووفي، وقد تأكدنا منه».

Twitter: @ketab_n

اصطحب بعض الأفراد البالة والرجل الذي كان سيتسلمها إلى مديرية الشرطة، بينما اقتاد الآخرون جورج مخفوراً، مكبَّل اليدين، وأمروه بإرشادهم إلى المكان الذي تسلم فيه البضاعة. لكن الساعي الشاب تعنت عن جهل، غير واع بتداعيات عناده. لم يذعن، رافضاً الإفصاح عن عنوان الشابين الأنيقين المجهولين. وفي غمرة عماه، أصرَّ على القول إنهما رجلان نزيهان... لمجرد كونهما أجزياه بسخاء! أخيراً، بعد تضييق الخناق عليه، أدرك - إنما بعد فوات الأوان - أنه معرض للتورط ورطة كبيرة في القضية. فأرشد ضباط الشرطة إلى الردب القريب من دير «سانت أوپورتون»، وصعد معهم إلى الدور المسروق، بين الطابقين الأرضي والأول.

وهناك، ألقي القبض على من ادعى أنه صاحب مصنع شراشف في «لوڤييه». أدى وقع المباغتة عليه، فضلاً عن إمطاره بالأسئلة، إلى انهياره بسرعة. فاعترف أنه وزميله مندوبان تجاريان، يعملان لمصلحة أحد أرقى متاجر العاصمة وأشهرها. وأوضح أن ولعهما بالقمار أرغمهما على اختلاس قطع من البياضات والشراشف العالية من المخازن التي يعملان في إدارتها، وبيع المسروقات على بعد 30 فرسخاً من باريس لئلا يكشف أمرهما. اقتيد هذا بدوره

Twitter: @ketab_n

إلى مديرية الشرطة، حيث سبقه شريكه في الجريمة. واصطحب جورج أيضاً، الذي شكل المكتوب الذي وجد معه دليل إدانة بالتواطؤ.

كان للأمر وقع الصاعقة على روبير. إذ تجمعت المظاهر كلها لكي تعزز اتهام ابنه. فهذا حمل ثلاث بالات إلى ميناء «لا غريف»، تضم كلها بضاعة مسروقة. وأبدى ثقة عمياء بزبونيه لأنهما دفعا له بكرم. وكتب هذان نصاً يصفانه فيه بأنه «كتوم ووفي»، مشددين على أنهما «متأكدان منه». وتقاضى أجراً مضاعفاً عن عمله كساع. إلى ذلك كله، يضاف شحوبه عقب الإمساك به، وأجوبته المترددة المتناقضة على ما طرح عليه من أسئلة. مع مثل تلك العناصر، مجتمعةً ومتراكمةً، أنَّى لا يقتنع رجال الشرطة بضلوعه في السرقة المنظمة؟

هكذا، كالآخرين، إنما بصورة منفردة، أحيل إلى قاضي التحقيق، الذي أدانه بالتواطؤ مع الفاسدين الآخرين، مؤكداً أنه سهَّل عملهم بدراية تامة ووعي. هكذا، على الرغم من براءته، قبع المسكين في زنزانة مظلمة، لغاية موعد جلسة محكمة الجنايات الكبرى.

Twitter: @ketab_n

أحيط تيودور علماً بالاتهام المعزز بحجج دامغة، فركض إلى بيت روبير، فوجده، هو وزوجته، في أسوأ حال من الحزن والغم والهم. علم منهما أن جورج أفاق شيئاً فشيئاً من غفوته الأولى، واستعاد صوابه، فبات يصرخ أنه بريء. وهو في مرحلة مناقشة أطروحته، لم يجد طالب الحقوق تيودور صعوبة في الحصول على ترخيص يتيح له تأدية أقدس الواجبات إزاء صديق طفولته. قام باستجوابه بنفسه، بذلك القدر من التفاني والدقة والتجرد اللازم أن يتحلى بها أي حقوقي عاقل يسعى إلى معرفة الحقيقة، من أجل أن ينتصر لها.

بدا جورج في عيني تيودور مجرد أرعن متغافل، إنما ليس مجرماً البتة. وبما أن الأدلة كلها كانت ضده، أيقن أن قناعة المحلفين، وحدها، هي التي من شأنها إنقاذ حريته وانتشال شرفه. وبعدما أجريت القرعة لاختيار المحلفين، وجد أن بينهم حرفيين نزيهين، وأربابَ أسَر، لن يسمعوا سوى نداء ضميرهم. آه، لو تمكن عاثر الحظ جورج من الحصول على خدمات محام بارع، تتيح سمعته تمزيق الحجاب السميك الذي يلفع براءته! صرح تيودور:

Twitter: @ketab_n

– سأذهب بنفسي لاستعطاف أي محام معروف. وسأقوم بجمع الملاحظات والشهادات، وتدوينها، وتحضير كل ما يلزم للدفاع، بتفان وعزم. كم سأكون سعيداً لو تمكنت من الإسهام في تبرئة صديقي!

أسهم هذا الاستعداد الكريم في طمأنة والـدي جورج الشقيين، وتهدئة روعهما وتخفيف يأسهما. وما عززهما في الصبر والسلوان أن جيرڤيه وزوجته الرائعة باتا يعودانهما في زيارات مستمرة لمواساتهما. قال لهما روبير، وقد اجتاحه ذلك الحماس الذي يعتري الرجال النزيهين في الحالات التي يخشون فيها أن يداس شرفهم:

– أدركت، بعد فوات الأوان، خطأ إهمال تعليم ابني. لو كان يعرف القراءة والكتابة، لما كان اليوم في قفص الاتهام. لو حكموا عليه، سأموت ندماً وغماً.

أخيراً، حلَّ يوم مثول جورج ابن روبير أمام القضاة. لكن، عشية ذلك اليوم المنشود، أصيب أحد الشبان المتهمين الآخرين بنوبة جنون، بعدما ظلت الأفكار السوداء تختمر في رأسه مدة، إلى أن فجرته. فتقرر إرجاء المحاكمة إلى نهاية الموسم. ناقش تيودور أطروحته في الحقوق بعد بضعة أيام. فأجمع الأساتذة

Twitter: @ketab_n

على سعة درايته، وبلاغته ومقدراته الخطابية، تلك التي يمتلكها مشاهير المحامين الفرنسيين. فذاعت قصة نجاحه وتألقه لدى أوساط المحاماة في باريس. لذا، عرض عليه المحامي الذي كان اختاره بنفسه للدفاع عن صديقه، جورج، أن يرافع عنه، هو تيودور، بدلاً منه. قال له المحامي ذو الباع الطويل:

– إن حرارة الصداقة، ومعها قناعتك الحميمة ببراءة المتهم، سيتركان عند المحلفين انطباعاً من شأنه إنقاذ صاحبك. سأكون إلى جنبك، وسأسندك في خطواتك، ولو أنني متأكد من أنك لن تحتاج إلى دعمي. رافع بعفويتك النبيلة، علامتك الفارقة. دع أحاسيس نفسك المرهفة تغمرك، وانهل من قريحتك المتفتحة وخيالك الخصب. إن فعلت ذلك، سيدهشني ألا تحرز نجاحاً باهراً، سيكون بمثابة علامة لدخولك في مهنة يبشر انتماؤك إليها بكل الخير.

تشجَّع تيودور إثر ثناء المحامي الشهير، الذي كان يود أخذه قدوة. وانقاد للفكرة الجذابة في أن يكون، هو بنفسه، مَن يسعى إلى إنقاذ شرف صديق طفولته وإعادة الحرية إليه، مبرهناً في الوقت نفسه إلى الملأ أن للتربية أثراً حميداً عظيماً. هكذا، قرر أن يرافع عن المتهم. مثُل أمام المحكمة الملكية، فأدى

Twitter: @ketab_n

القسم اللازم لدخول سلك المحاماة. وفي المساء نفسه، ارتدى ثوب مهنته النبيلة وحمل حقيبته تحت إبطه، وذهب إلى معتقل «لا كونسييرجري» لكي يسمع مجدداً تعبيرات البراءة الساذجة من فم الساعي اليافع، ويسجل الوقائع كلها، بحذافيرها، المتعلقة بالتواطؤ المزعوم.

كان روبير وزوجته قد سبقا تيودور إلى المعتقل. جعل المحامي الشاب يدون بدقة المعلومات التي أدلى بها جورج، بعفوية وصراحة وصدق جعلت تيودور يزداد أملاً ويبشر خيراً. في هذه الأثناء، كانت أم المتهم تحضه بإلحاح على أن يبوح بكل شيء، من دون إخفاء أي تفصيل، مرددة أن تيودور ملاكه الحامي. أما روبير، فوقف خلفها، مردداً بصوت خافت لا يكاد يبين:

– آه! لو تعلَّم جورج القراءة والكتابة، لما كان اليوم في حظيرة المتهمين.

مثُل جورج في اليوم التالي أمام المحكمة، برفقة المتهمين الآخرين، الذين، إزاء الأدلة الدامغة، معززة باعترافاتهم الطوعية، ما كانوا ليأملوا بأي رحمة من جانب هيئة المحلفين، أياً كانت مواهب محاميهم.

Twitter: @ketab_n

جاء دور تيودور، فعصر بقوة إحـدى يدي السيد المبجل دو لاپيريير، الذي كان جالساً خلفه، ثم نهض من مكانه. أطبق الصمت في القاعة، على الرغم من حضور عدد كبير من تلاميذ التعليم المتبادل وسُعاة العاصمة الحمالين. حيا المحامي الجديد المحلفين والقضاة والحقوقيين، وأيضاً زملاءه المحيطين به، الذين بدت نظراته المتواضعة نحوهم وكأنها تلتمس الرحمة. تحدث بالقول:

- سادتي، أنا أتشرف بإجراء أولى مرافعاتي أمامكم، ومن أجل الدفاع عن أول أصدقائي. لكانت جسارتي لا تغتفر لو أنها لم تقم على أساس قناعتي الحميمة التامة ببراءة المتهم الكاملة. ومن يمكن أن يعرفه أفضل، ويكفل نزاهته، أكثر من صديق طفولته وابن زميل أبيه؟ لقد تابعته خطوة بخطوة في درب الحياة الأول، وتقاسمت العمل معه. ربطت نفسي معه مرات لكي نسحب عربته كساع، فنصل معاً إلى أعلى شارع منحدر. الآن، في هذا الظرف العصيب، لَم لا أربطها ثانية إلى جانبه لكي نصعد معاً الهاوية المروعة التي حفرها تحت قدميه؟

ذلك الاستهلال، الذي ألقي برضاء صريح وبتعبير ينمُّ عن نفس زكية، أحدث تأثيراً لا يقاوم لدى الحاضرين. فطن تيودور إلى ذلك، فاسترسل في ارتجاله الساحر، ونهل من قوة بيانه. شدد على

Twitter: @ketab_n

أن المكتوب القاتل الذي يبدو، لأول وهلة، عنصر إدانة بالتواطؤ مع المذنبين الآخرين، ينبغي، على العكس، أن يبدو عنصر تبرئة في عيني أي قاض عادل، ويغسل آخر شك من شكوكه.

أكد تيودور أن تلك الرسالة، التي سلمها جورج بأمانة وإخلاص، لا تدل بتاتاً على أنه كان على دراية بسر الجناة، إنما مجرد حمال بسيط، نقل البالات التي عهدت إليه، فأدى الأمانة وفق ما تفرضه مهنته كساع مخلص. وأضاف أنه ينبغي، لإزالة أي شك، استجواب مجمل حياة المتهم، والأخذ في عين الاعتبار أنه أمضى خمسة وعشرين سنة إلى جانب والده، باستقامة معترف بها، من دون اقتراف أي ما يؤاخذ عليه. واستطرد أنه من المستحيل أن ينقاد إلى الغواية هكذا، على حين غرة، من أجل ذلك الأجر التافه، الذي ظن أن الجناة ضاعفوه له فقط تعويضاً له عن ثقل حمل البالات المنقولة.

ثم انتقل المحامي الشاب إلى عرض المخاطر والمصائب التي يتسبب فيها الجهل المطلق لشريحة من الشعب، الذين، بسبب جهلهم تحديداً، يصبحون يسيري الخداع ولقمة سائغة للنصابين والمحتالين. أشار إلى أولئك الكادحين ممن يعينون المجرمين من دون سابق معرفة، بينما يتحلون في الواقع بروح كريمة

Twitter: @ketab_n

ونفس مستقيمة، مستعدة للتضحية بكل شيء من أجل الشرف والسمعة.

أخيراً، أشار تيودور إلى صديقه الشاب، الذي كان مطأطأ الرأس، وعيناه تذرفان الدموع، لا عن خشية، إنما بسبب ألمه وغمه لكونه وجد نفسه مزجوجاً بين مجرمين حقيقيين على ذلك النحو المشين. أجرى تيودور مقارنة مؤثرة بين وضعيهما، هو وصديقه المتهم، مستخدماً أبلغ دعاوى البيان، وتعبيرات قوية نفذت إلى أعماق القلوب:

– سادتي المحلفين، سادتي الحقوقيين. ترون أمام أعينكم ابني ساعيين بسيطين، نعِم أحدهما بالتعليم، وحظي بحماية الإحسان والمعروف، فأصبح يقف مرافعاً بين محامي العاصمة. الآخر حُرم من المعرفة، فبات في مواجهة نفسه، فاستغل مجرمون طيبته وثقته، ما قد يجرُّه إلى خزي ورذالة لا يستأهلهما إن لم يوجد بينكم قضاة ساكنو الجوارح، يسبرون أغوار قلب الإنسان، فلا ينتزعون منه، بناءاً على مجرد مظاهر، من أغلى ما عنده: شرفه وحريته.

حالما أنهى تيودور مرافعته، أكد المحلفون أن ضمائرهم باتت على بينة كافية من الأمر، وطلبوا الانسحاب من أجل التداول. بعد ربع ساعة، عادوا إلى القاعة، وأعلنوا قرارهم بالإجماع:

Twitter: @ketab_n

جورج غير مذنب. فنطق القضاة حالاً بحكم تبرئته. أطلق المعني صرخة فرح، وغادر مسطبة المتهمين المنحوسة التي كان جالساً عليها، فارتمى في أحضان صديقه. والسيد المبجل دو لاپيرير، من جانبه، احتضن ابنه بالمعمودية بحرارة، حاله حال روبير، الذي وجد نفسه فجأة متحرراً من ثقل مروع كان ينوء تحته. قال لمحامي ابنه:

– إنني مدين لك بالحياة، وأكثر. وأقرُّ بخطئي عندما أصررت على ألا يتعلم ابني المسكين أكثر مني.

عمد المحامون الآخرون إلى تهنئة زميلهم على نجاحه الباهر في أول قضية له. واعترفوا بأن قناعته الحميمة هي ما أضفى على الدفاع تلك القوة وذلك النفس الساحر الجبار. ورحبوا به كمرشح مؤكد لأن يكون أحد الخطباء البارعين ضمن سلك المحامين الباريسيين.

على حين غرة، اقتحم الحشدَ طلابُ التعليم المتبادل السابقون ومجموعة السُّعاة التي حضرت، فأحاطوا زميليهما، المحامي والمتهم البريء، وهنؤوهما. حيوا جميعاً ذلك النصر المحقق، مُبدين أحلى مظاهر البهجة والفرح. جعل الجميع يباركون تيودور ويعربون له عن تقديرهم وإعجابهم، وهو يرد بأدب

Twitter: @ketab_n

وتواضع على ملاحظات هؤلاء، ويصافح بحرارة أيادي أولئك. ثم توجه إلى الجمع الغفير حوله بالقول:

– أنتم، يا من تؤلفون طبقة الشعب الغالبة، أيها العاملون الكادحون والحرفيون الطيبون، وأنتم بشكل خاص، زملاء أبي الأعزاء، تأملوا غمرة الفرح على محياه الآن، واتبعوا المثال الذي يعطيكم. لا يكفي أن تؤمّنوا لأولادكم غذاء الجسد، إنما عليكم أيضاً بغذاء الروح. وغذاء الروح هو التعليم. كم من جنود صناديد حرموا من مراتب أعلى، يستأهلونها، لأنهم لا يجيدون القراءة! كم من تجار صغار خدعوا في مضارباتهم لأنهم لا يستطيعون إلا بالكاد خط إمضاءات سهلة، يقلدها محتالون بارعون! حذار من ترك أولادكم يتسكعون في الطبيعة، على غير هدى، فيختلطون بأشخاص فاسدين فظي الطباع، يأخذون عنهم، من دون وعي، الكلام البذيء والميول السوقية والعادات السيئة.

توقف تيودور قليلاً، ثم استطرد:

– أجل، ارشدوا أولادكم إلى مدارس التعليم الابتدائي، وسجلوهم فيها. فهناك، سرعان ما سيحضهم الاقتداء بالأفضل والمنافسة الشريفة وطموح الحصول على جوائز على تطوير ملَكاتهم الفكرية. وسيشع في عيونهم نور منشط. هناك، من

Twitter: @ketab_n

دون أن يتحتم عليهم بذل جهد خارق، ستسعفهم ذاكرتهم ويسندهم ذكاؤهم بشكل طبيعي لكي يتعلموا واجبات الإنسان تجاه الله وتجاه ذوي القربى. سيُحسون بأن قلوبهم الغضة تحلق في السماء، وتكبر. سيشعرون بتلك الحاجة الماسة لكل مخلوق بأن يكون محبوباً ومقدَّراً. لا تخشوا من أن يبعدهم أي غرور عنكم. فكلما تعلموا أكثر، كلما أدركوا ما يدينون به لآبائهم أكثر، فيحترمونهم أكثر. اعلموا أن التعليم يهذب الأخلاق، ويخصبها كجدول ماء نمير، يبزل أرض السهل ويحيلها غنية معطاء.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ISBN 978-9948-01-520-8
9 789948 015208